السيد سند

السير نحو المجهول

رواية

اُشْعُرْ بِمَا لَمْ تَشْعُرْ بِهِ !

عن الكاتب

– كاتب ومؤلف

– محاضر لغة إنجليزية

– مدقق لغوى (عربى - إنجليزى)

– مترجم

عن الكتاب

فى شتاءِ العقدِ الخامس من القرنِ العشرينَ فى الألفيةِ الثانية، وقبيل منتصف ليلٍ بساعتين وربع، يأتى ضبابٌ دامس أغشى القرية كلها، يتبعه عاصفة رملية وهزة أرضية توقظان أهل القرية وتجتاح البلاد. ويذهب تاجر البلد وصاحبه إلى مركز المدينة وراء العمل فى ظل تلك الأجواء. فإذا يتفاجؤون بتلاشى البلاد وهجران البيوت وكأن البلاد فى مرحلة اكتشاف الإنسان النار. وإذا يتغامرون فى رحلتهم التى امتدت عليهم بلا رجعة!

السير نحو المجهول

السيد سند

الكتاب: السير نحو المجهول

المؤلف	
تدقيق ومراجعة	**السيد محمد سند الفخرانى**
اختيار الغلاف	
تنسيق داخلى	

فيس بوك: elsayed.sanad.2015

البريد الإلكترونى: elsayedsanad67@gmail.com

السيد سند

السير نحو المجهول

رواية

إهـــداء

إلى من يحب استثارة الأذهان.

إلى من لا يهوى القراءة.

إلى البائسين والمتشائمين.

إلى من لا يجد حُلوًا فى الحياة.

لا أحدَ يقدِر على العيش وقلبه وعقله يعملان فى الوقت نفسه.. فإما أن عقلك سيطغو على قلبك ويعمل بمفرده مائلًا إلى المنطقية.. وإما أن قلبك سيطغو عليه وتكون عاطفيًا مائلًا إلى الوجدانية.. وإما أن قلبك سيؤثر على عقلك فيدخلان معًا متاهةً فى عالمٍ موازٍ تائهٍ مجهولٍ لا يفهم ذاته!

دعنى أغوص بعقلك فى غمارِ أحداثٍ خياليةٍ بائسة تتململ فى ثنياتها مشاعرُ دفءٍ وغزلٍ وخوفٍ وانغماسٍ فى التفكير.

فلْتفتحنَّ شبابيكَ خيالك الواسعِ أيا حضرة القارئ الجميل.. ولْتلقىَ حبلَ سلّتك فتنغمس فى رحلةٍ مع قلبٍ يشعر ويريد، وعقل يرفض!

(١)
مِيت غُراب

فى مطلعِ العقدِ السادس من القرنِ العشرينَ فى الألفيةِ الثانية، وقبيل منتصف ليلٍ بساعتين وربع. فى ليلٍ مطيرٍ قارس البرودة والبرق يلُوحُ ويتلاشى والسماء ترعد. وقد أسدل الليل وشاحه الأسود الحالِك. وسكنت النفوس إلى من حداها واحتواها. وانتظمت أنفاسُ الناس لتسلك سلوكها فى خضم أحلامٍ دفيئة. وغزت أصواتُ تساقطاتِ المطرِ الأرضَ وأسطح البيوت مُباركةِ الدفءِ المجاورة لبعضها المبنية من الطين والطوب، وساحات أجواء المكان معلنةً عن أمانٍ سرمدىٍّ تشبث بالقلوب.

وانقبعت حيوانات الشوارع فى زوايا قابعة كساها الدفءُ والاحتواءُ من سقطات الأمطار التى تشبه فى كثافتها للبارود.

وقتئذ، كانت هناك أعين شريدة البال فائقة لم يزرها النوم، أعين تسبح بحمد الله وتستغفره، وأخرى تناولها السهر السمير. فتحت سطح ما فى أحد مداخل البيوت ذات السقف المنيع، كان (حامد) –والذى يعمل تاجرًا– بجلسةٍ مع رفقائه (حسن) الكاتب و(زكريا) راعى الأغنام.

جميعهم فى السِّن نفسها، أربعة وعشرين عامًا بلا إنجازاتٍ سوى جلستهم التى تجمعهم كل يوم ليشربوا شايًا ويتسامرون ويضحكون على طرائفهم التافهة أمام نار الخشب الموقدة.

يقول (زكريا):

– «لطالما أحببت جلسةٍ كهذه تحت هذا المطر الهائم. فكوبُ شايٍ رائقٍ مثل هذا تروقُ لنا الأمور».

قال (حامد) وقد أغمض عينيه يتلذذ الشم:

– «هممم.. هناك من غلبته معدته وقام يحضر عُجة!».

شرب (زكريا) شَربةَ شايٍ وسأل (حسن):

– «قل لى يا (حسن)، ما أخبار العمل معك؟ ألديك جرنالٌ تعمل عليه؟».

فشرب (حسن) شربةً وقال:

– «كاتبٌ بلا ديوان.. هذا حالى.. ماذا استفدتُ بعلمى؟ لا شىء!».

فقال (حامد):

– «أنت كالبهيل، تمضى يومك بلا عمل. برقودك البائس هذا لن تجد مرماك».

– «وهل بكسر مجادفى أجد مرماى إذًا؟ .. فها أنا ذا جليس مَرميٌّ بعد مضىِّ دربٍ من العلم الوفير!».

– «أحاولت لآخر مرة؟!».

– «يا رجل إن الأشياء التى أريدها أجدها عند الناس يسيرة وتتعطل محركاتها -إن- كانت زاحفةً نحوى!».

– «لا شىءَ يأتى إليك.. الأشياءُ ليست لها أقدامٌ مثلك، ولا عقلٌ يفكر مثلك.. فلتَقدِم نحوها وتحارب من أجلها وإلا فلا تبكى بفقدانها!».

قاطعهما (زكريا) قائلًا:

– «دعاكما من بؤسكما هذا ودعونا نتلذذ الشاى الفاخر فى ليلتنا المطيرة هذه».

صمتوا قليلًا ثم قال (حامد):

– «أترون نيران الوقود هذه؟ أتعلمون ما تفعله بنا؟ إنها تحتضننا بنيرانها.. يعترينىَ شعورٌ بالنعاس».

ثم تثائب، فقال (حسن):

– «ابتعد عنا، ستُنعِسنا معك يا عم!».

قال (زكريا):

– «سأدخل الآن لأنام فعندى عملٌ بالصباح».

قال (حامد) مازحًا:

– «وهل ستغلق والدتك باب البيت فلا تدخلك بعدها؟».

فرَد مازحًا كذلك:

– «كلا، والدى من يغلقه».

فضحك (حسن) و(حامد). فقال (حامد):

– «يا فتى، دعنا ساهرين قليلًا ونستمتع باللحظة الحاضرة، فالأيام المقبلة ستكون صعبة!».

فجلسوا صامتين قليلًا ثم قال (حسن):

– «هذا الجو المَطير يطربنى! أتلذذ بشم رائحة هذا المطر الهطيل وسماع قصف الرعد الثقيل ورؤية هذا البرق الوميض! وَاه إطراباه!».

قال (زكريا):

– «هذا الليلُ العصيف يذكّرنى بأيامىَ الأُوَلِ عندما كُسِرت قدمى فغدَوْت أتكئُ على هذه العصا لغضبى على خسارتنا مباراة النهائى بسبب ركلات الترجيح الغبيةِ تلك!».

قال (حامد) مُلوِّمًا إياه:

– «أنا أدعوها ركلات الحظ. دعك من كل ذلك، أنت شديد التعصب للكرة حتّما تشاجرت وكسرت قدمك.. إن الغضب مِغرافٌ لما فى القلوب، يسلب ما فيه من سوءٍ ويكبُّه أمامك غير واعٍ بالمسكوب!».

– «وسأكسرنَّ قدمى الأخرى المرة المقبلة إن لم نفز! .. إن حبى للكرة مثل طفلٍ كره أباه لكثرة سخطه عليه لكنه لا يمكنه العيش دونه .. !».

* * *

إن الأشياء الجميلة واللحظات الممتعة كثيرًا ما تقطعهن قاطعة فتفصل الوجدان عن وجدانه وتسلبه مما كان فيه، مثل عِفريتِ العُلبة أو شيء آخر نعرفه. فما لبثوا جالسين حتى قُطعت جلستهم وغشى المكانَ ضبابٌ لا ترى منه الأعينُ وكأن الأرض تدخن. وعصفت ريحٌ هيجاء اشتدت بها النيران بالخشب. وما إن كانوا جالسين فى صمت.. حتى انقطعت جلستهم ودبَّت هزةٌ أرضيةٌ أفاقت سكان الريف كلهم.

فخرجوا كلهم أفواجًا فاجعين من بيوتهم التى صنعوها من الطين، إذ كانوا نيامًا دافئين بنار الوقود مدفئين، ليروا ماذا حل بهذا البلدِ الأمين من هزةٍ أرضيةٍ صاحبَها ضبابٌ ورعدٌ يقصف فغطت الظلماتُ هوامشَ البلدِ. والقمر فى اكتماله ببريقه البرتقالى الهادئ. وكان ضوؤه هو عيناهم التى يبصرون بها فلا نورَ غيره والبرق الذى يلوح لحظةً بين الحين والآخر.

قال (حامد) مندهشةً معاقلُ حواسِّهِ:

– «وكما أن الحبُّ يأوِى قليلى الحيلة ويُكسبهم أمنًا وطمأنينة، فهذا الضباب سيلتهمنا الآن بصرخة رعده الطنانة! الطف بنا يا رب!».

أعقب (حسن) مازحًا:

– «وكيف طعمه؟».

– «أتقصد طعمنا نحن؟».

– «نعم أيًّا يكن».

– «مثل طعم البشر!».

قاطعهما (زكريا):

– «أقال لكما أحدهما من قبل أنكما شخصان تافهان؟!».

رد (حسن):

– «نعم، أنت فعلت!».

– «طيب.. سأدخل الآن لأنام».

فقال (حامد) مجددًا:

– «وَيحك! يبدو أنك تأخرت على والدتك يا (زكريا) وسوف تغلق الباب بالفعل!».

فقال (زكريا):

– «جميع الناس الآن بخارج البيوت، لن يأخذهم نومٌ ولن يُغلق لهم جفنَا».

– «إننا بالليل، ماذا سيفعل هؤلاء؟».

– «معهم الله، أنا نعسان جدًا، سأخلد إلى النوم».

* * *

حسن

ذلك الكائن ناضجِ الفكر كثيرًا منتجٍ للأفكار، وطريف النكات أكثر. مثقفٌ ولا يطيق صبرًا على القراءة. يريد معرفة كل شيء بلا كلل. يركز على أكثرَ من شيءٍ فى وقتٍ واحد، لكنه يتمُّ شيئًا واحدًا. سليمةٌ طويّتُه مرِحٌ وعفويّ المعاملة ترتاح له إذا حدثك. غير مباشر الحديث متفتح الأركان ولا يحب أن يُعرِبنَّ عن حالته النفسية لأحد. يحزن ولا يعاتب. يكره الإهدار وعاشقٌ للدقة والنظام. سهلُ الإرضاء، بطيءٌ إذا شعر بالإهمال أو السخط. وإنه شخصيةٌ مضحية لا نجدها فى شخصيات أيامنا المليئة بالضغينة.

لديه مذكرةٌ يهوى الكتابة فيها كثيرًا فلا يفارقه قلمه فهو كاتب، وكل شيء يمر به يكتبه فيها وكأنما يبنى بيتًا من الأحداث أو يحكى أنيسًا عن يومياته. ومن لا يهوى الكتابة؟!

إن الكتابةَ أشبهُ شيءٍ بمعركةٍ حُلوةٍ تحملُ فى ثنياتها ممارساتٍ عدوانيةٍ ناتجة عن الهياج الذهنى. فهى معركةٌ تدور بين العقل والقلب والواقع وما أشبهها بالاغتصاب! إذ إنها معركةٌ عدوانية تغتصبُ فيها الواقعَ بكلماتك وأفكارك! ومنّا من يكتب لأنها هوايةٌ أو شيءٌ للتسليةِ وملءِ فراغٍ أو ليرى سوادَ عيونَ كلماته! ومنا من يكتب لأنه ما وجد من يسمعه كدأبِ أوراقه. من يكتب لأنه ما وجد الحيلة ليروى لشخصٍ أمورًا وأسرارًا لا يريد أن يعرِبَنَّ عنها لبشر. فكأيِّن من المراتِ يجنح إلى صحفه وأقلامه وبأىّ وقتٍ يشاءُ وكانت له آذانًا صاغية! فهى تعرفُ عنك كلَّ شيءٍ ما أخفيت عنها خافية. منا من لم يستطع أن يوصلَ ما يشعرُ به لأحدٍ فيكتب لها. ومنا من يكتب لأنه لم يستطع أن يبصقَ صراحةً فى وجوهِ الناسِ اشمئزازًا فيبصقُ فيهم على أوراقه!

عاد (حسن) و(حامد) إلى مرقد جلستهما الليلية مجددًا بعدما خلد (زكريا) إلى النوم وقد أشعلوا الوقود بعدما انطفأ.

قال (حسن):

– «قل لى أيها التاجر، متى ذهابك إلى المدينة فآتينَّ معك باحثًا عن عمل؟».

– «أنتظرك إذًا غدًا فى الرابعة عصرًا ونذهب. إن زِدت على ربعٍ فسأغادر ولا أدرينَّ لك بوِفاق!».

لكن صمت برهةً ثم أعقب مبتسمًا:

– «أو ربما أنتظرك أكثر فما أحبّما بما لقبتنى!».

فقال (حسن):

– «يا لكم من قومٍ تؤثَرون بما إليكم حُبِّبَ، وتَنفرون مما عليكم وُجِّبَ!».

فنظر إليه مبتسمًا ابتسامة خفيفة من أقصى طرف عينيه مضيقًا لها.

وبعدها بقليل.. ذهب (حامد) للنوم، وظل (حسن) وحده فائق البال شارده يبغضُ النومُ أن يلقاه. فبدأ بالكتابة فى مذكراته التى ليست سواها من يسامره هى وأفكاره العابقة الشريدة الكامنة داخل عقله التائه فى غمار متاهةٍ تأويه هى وقلبه البالى الوحيد. وقد كانت كتاباته كلها بائسة:

الثانى عشر من يناير ١٩٤٦م.. منتصف الليل...

قد عشِقتُ الأقلام والكتابَة وأعتدتها، فأصبحتُ مرهونًا مقرًنا بها. كنت طائشًا بلا هدف، كنت كغريب الليل الذى لا تهديه النجوم. لم أكن أحب الأقلام وإنما الخُلوة التى أجد فيها نفسى من كل ما يحوطنى وتخرجنى منه. نعم.. فأنا ذاك الذى يحب سُكنَة الروح التى تكمن فى هدوءِ ليلةٍ من ليالى الصفا! فجالت بى عتمُتها فى ساحاتٍ شتّى ما بين الحقيقة والخيال ما كنت لأمر بها. فلم أجد ما يطلق سراح تلك المشاعَر الوجدانية سوى الكتابة!

فأنا شخصٌ فى غاية البساطة، فتغمرنى السعادُة عندما أخلو بنفسى بين مغربٍ وعشيةٍ بعيدًا عن الناس وتناسٍ للزمان. تغمرنى السعادة عندما أشعر بأننى مرغوبٌ فيه. وتغمرنى كثيرًا عندما أجتمع بأصدقائى فى جلسةٍ بنهايةِ اليوم.

وتحفنى السعادة عندما يندفع الهواءُ الرطبُ إلى خياشيَم وجهى وأطرافه فى يومٍ باردٍ غائم! ولكن حالما ينتهى ما ينتابنى من شعورٍ كهذا حتى أفوق من غفوتى! فإذا عقلى تائهٌ ضالٌ مع قلب يتمنى ولا يجد، فكيف السبيلُ إلى دوام السعادة؟!

أظن أن عقلى وقلبى لن يتعاقدا! فعقلى تائه منذ سنةٍ. هو يرى الأيام تتوالى والناس حوله يتراكضون بعضهم فى مضيّ وإصرار وبعضهم ساكنٌ كما تسكن إلكترونات النواةً فتحزن عليها الذرات وتموت الخلية!

لقد نجح عقلى فى الآونة الأخيرة فى التوصل إلى – وصف– لما هو متغطرسٌ فيه.. ألا وهو صراع فيه مع الأفكار داخل متاهته التى تأويه.. صراع مثلً صراع الذرات والإلكترونات حول النواة.. نواةً نفسى ورغبتى العارمة المانعة! ...

وقد غدا عقلى مع أفكارِه فى تنحّ إلى غرفةِ الإنعاشِ والطبيبُ قلبى بؤسٌ يسقيه. فإذٍ يقول لهم عقب تخديرهم بالوحدة والذكريات: «أتعلمون.. أنا لا أحب هذه الشَّغلة.. لكن ما أنا بفاعلٍ؟! فهذه حياتنا!».
فيجيبه العقل قبيل غطرستهِ فى غيبوبةٍ داهمة:

«عذرًا، أى حياةٍ تعنيها؟! تلك الحياة التى لم أحظَ فيها بشىءٍ أتمناه! إن الأشياء التى أريدها وتشتهيها نفسى أجدها عند الناسِ يسيرةً وتتعطل محركاتها إن كانت –زاحفةً– نحوى! .. لم أحظَ بحياةٍ بعد.. أنا مطمسٌ فى ظلام!».

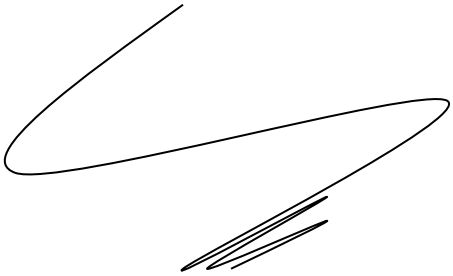

أغلق (حسن) مذكرته وأرسى قلمه عليها وهمَّ بالمغادرة نحو بيته تشاغره الأفكار التى لا تنام. كان سكان الريف قد أخلدوا إلى نومهم والشوارع المبللة بماء المطر الذى لا يزال يهطل عليهم قد خلت من أى حركة دابة، حتى وصل (حسن) بيته ونام قرير العين هو الآخر.

* * *

طريقٌ طويل

يبعد مركز المدينة عن البلدة بُعدًا طويلًا، فأخذ (حسن) و(حامد) يرتبان أغراضهما وما سيحتاجان إليه من عدةٍ وطعامٍ وشراب تؤنس دربهم، فالرحلة سوف تطول، فهي تبعد تقريبًا تسعة كيلو مترات وسوف يذهبون على متن فرسهم العزيزة (ابتسام).

لم تكن ليلةُ أمسٍ مجرد أمسية مطيرة وحسب، إذ كان اليوم التاليَ لها عصيف الريح تطاير الأتربة على الأرض وتشلّ توازن السائر بل أشد ذكرًا. وكانت السماء رمادية كلَون الفئران والجو شديد البرودة.

وفى تمام الساعة الخامسة. يقف (حامد) بحقيبة سفره عند مخرج البلدة –حيث وجهته نحو مركز المدينة– مترقبًا حتى الساعة مجيء (حسن) المتأخر بعدما اتفقا على الساعة الرابعة ولم يأتِ بعد. وبعدها بقليلٍ لمحَه قادمًا من بعيدٍ بحقيبته يمشى مِشيته مشية فتاةٍ ترقص ويبتسم من بعيد كادت الابتسامة تغطى وجهه البعيد، فقد تأخر عليه كثيرًا.

قال (حامد):

– «أفأبرحنَّك ضربًا أَم أَهُمُّ عليك بعُكار الماء فى وجهك حَطيطا؟! فإن كنت أنتظر فتاتى فلن تتأخر مثلما تأخرت أيها الحقير!».

فسأله وهو يدرى أنه لا يدرى الساعة:

– «لم أتأخر كثيرًا، كم هى الساعة الآن؟».

– «أقدم أمامى فى هرولةٍ وإلا ألقيت وجهك بتراب الأرض!».

فقال يستفزه:

– «عجبًا للريح قد جردت أرضًا من أتربتها!».

وأعقب:

– «ألم تقل لى تأخر كما تريد؟!».

صمت (حامد) وبحلق فى وجهه قليلًا ثم همَّ بالسير.

فمشى وراءه (حسن) كأنه طفلٌ يُسحب وقال:

– «حامد.. حامد.. يا حامد.. أنت أيها التاجر الحقير!».

فقال فى نرفزةٍ وكأنه يرضى طفلًا:

– «طيب!».

* * *

ظل (حامد) و(حسن) يسيران ويتحدثان فى أثناء سيرهم. ويقطعان أشواطًا من الطريق الصحراوى باهت الرمال والتربة. حتى أتاهم الليلُ البَهيم مهرولًا بسدوله التى يرخيها فى شتاءٍ شديد العُصوفة. والطريق مظلمٌ ليس به غير ضوء القمر الخافت الذى تراه فقط عندما تنقطع الكهرباء، وعصًا مشتعلة تضىء لهم الطريق. والسماء التى تملؤها النجوم. وهدوءٌ تامٌ لا تسمع فيه إلا صوت الرياح الهادئة. منظرٌ يريح أعصاب المتوترين. وكان طريقًا هادئًا ليس به حتى صوتُ صراصيرَ الليل السحيلة التى تشل فتلة العقل. طريقٌ لا نفسَ فيه كأن تضع أذنك عند فوهة إبريق وتسمع حَسيسَا.

وفى أثناء سيرهم.. وجدوا أمامهم أربعةَ كلابٍ مستلقية على الأرض كأنهم كمين. تلمع أعينهم كأنهم جنٌّ مترصد. ينظرون إلى السائرين فى نظرةِ عِجاب أنها ترى كائناتٍ متمردة تتحرك فى هذا الفراغ من الصحراء والمخلوقات فى هذا الجو! تحدق الكلاب إليهم رافعين رقابهم وأذنيهم لأعلى كأنهم

يتأهبون! ووقف أحد الكلاب موجهًا جسده نحوهم. ودار حوار ترتعب فيه قلوبهم، فقال (حسن):

– «ما هذا المنظر الذى أراه! إنهم سيهجمون علينا!!».

– «سأتبول من الخوف».

– «قلبى يخبرنى بالتراجع، فلنعد حالًا!».

– «لا لا، أسكِت قلبك اللعين. تغلب عليه فهو مصدر المتاعب، وأنصِت لعقلك. لن نتراجع. لا تكن جبانًا فتضيّع عليك فرص الحياة وسُبلها. سنتجاوزها».

– «سنكون فريستهم وسيلتهموننا يا أبلهْ!».

– «أعلم! ولكن فكر قليلًا وستعى أيها القلب الأحمق. لقد مررت بخطواتٍ طوال. لا يمكنك التراجع الآن وإلا ستخسر الكثير، وربما لن تتمكن من التقدم مرةً أخرى. فكر طويلًا، ثم تأهب جيدًا، ثم تحرك نحو الهدف بعد نذع الخوف».

– «وأىُّ خوف! أخاف الكلاب جدًا يا رجل!».

– «كلا، لن تؤذى الكلابُ أحدًا إلا لو أذاها».

فابتعدوا عنهم بضعة مترات.. ومروا بسلام.. والكلاب مستلقيةً على الأرض جنب بعضها فى سكونٍ يعم المكان. تشعر بالبرد وترتجف. لا تشغل بالها بمن يمر، فهى تحاول أن تدفئ بعضها. وبعد مضىِّ دربٍ طويلٍ جدًا، وجدوا خيمةً فى منتصف هذا الخلاء الصحراوى على جانب الطريق.

فذهبوا إليها ولم يجدوا بداخلها أحد، ولم يكن حتى آثارُ أقدامٍ حول الخيمة وكأنها بنيت نفسها بنفسها! فتبوَّؤوا منها مقامًا يتسامرون به ليلتهم حتى مجىء اليوم التالى فيكملون سيرهم. وفى أثناء ما كانوا مضطجعين داخل الخيمة يشربون الشاى الذى قد أعدّوه على النيران.. أمطر الجو عليهم وهبّت ريحٌ ليست بالشديدة، فأشعلوا ألواحًا أحضروها معهم وجلسوا حولها دافئين.

كان ليلًا باردًا جدًا حتى تدمع عيناك من شدة البرودة. وكان هادئًا أيضًا ولم يسمعوا صوتًا لصراصير الحقل. وكان القمر يختبئ ويلاعبهم من خلف السحب؛ حينًا يظهر وحينًا يختبئ.

يقول (حسن):

– «ما هذا الطريق الشاق كله؟! كل هذا من أجل وظيفة! ألم أقل لك إن ما أريده بعيد .. !».

رد (حامد) وهو يمسك بعصًا يضبط بها الألواح فى النار:

– «وهل تأتى المنايا بيُسرٍ أو سهولة؟ لا أحدَ يحصلُ على شيءٍ بسهولة أو بمحض الصدفة.. فكل شيءٍ فى هذا الكون يسير بحكمة».

ثم ترك الألواح وشأنها وأعقب وهو ممسكًا بالعصا يخطُّ بها على الأرض فى أثناء تحدثه:

– «قصةُ عمرِك مكتوبة ولكن.. أنت من تشهد الأحداث، فتوقّعُ عهدَك معها كيفما أردت .. !».

قال (حسن) وهو ينظر بطرف عينيه إلى الأرض مفكرًا:

– «وكيف أسجل قصتى وهى مكتوبة ومُقدّرة بالفعل؟!».

– «الحزن والفرح مكتوبان أن تعيشهما.. لكن أنت من تقرر إما أن يغمسك الحزنُ فى أعماقه أو تتغلب عليه.. بيدك! اللقاء نصيب.. أما البقاء فاختيار. نحن نملك الاختيار.. وأحيانًا ندعو رب الاختيار الذى كتب قصتنا باختيار البقاء! فلا أحد يهرب من المكتوب له.. ستواجهنَّهُ حتمًا حتمًا.. لكننا نسأل الله دومًا أن يكتب لنا الخير فيها وما نرجوه!».

ثم أعقب:

– «أنا نعسان.. سوف أخلد إلى النوم فباتت كثرة السهر وقلة النوم تُضعف مناعتى... وأنت.. أسَوف تنام؟».

– «لا.. سأجلس وحدى قليلًا. تصبح على خير».

– «وأنت من أهله».

* * *

إن لكلٍّ منا قصةً خاصة يعيشها داخل روايةٍ طويلة. سائرًا أو عابرًا فأنت تعيشُ حياةً غيرَ أبدية. سائرًا فى قصتك وعابرًا فى روايةِ الحياة. ولكلٍّ قصةٌ مختلفةٌ عن الآخر، فلا أحد قصته مثلُ قصتِك، ولكن قد تأتى الروايةُ بأحداثٍ واحدةٍ لكل منكما فتتشابهان فى بعض الأحداث. شِئتَ أم أبَيْت.. فإنك لَتَعيشَنَّ حياةً بالأحداث زاخرة؛ أحداث يَئِنُّ لها القلب وأخرى يسيل لها لعاب العقل تفكيرًا بها. أحداث تزفر منها الرئتان ضحكًا، وأحداث يحزن لها القلب ومنها، وأخرى يندم العقل عليها. تلك رواية الحياةِ التى تأتى بك إلى حالٍ غيرَ حالٍ ما دُمْتَ فيها.

أمَّا قصتك فتلك حياتك أنت من يكتبها، إذ إنك من تحدد ما إن كانت تلك الرواية ستطيل مدَّ يديها الوخزة بقصتك أم لا. ستحدد ما إن أردت قصةً فيها البؤس مُلِئَ أو تَحيَى صفوَ السعادة. وإنك لسوف تقابل شخصياتٍ مختلفةٍ ألوانها فى تلك الرواية؛ منها من سيدخل قصتك الخاصة عابرًا، ومنها من يدخلها مُقيمًا. منها من سيجعلك تشرب من كأسِ المرارِ

والندم، ومنها من سيجعلك تزرُفُ من الدموع نَدى. منها من سيجعلك ترى أن الحياة ما زال فيها الخير يتدلَّى بمقدارِ الذهب، ومنها من سيُرِيَنَّكَ بها العُجْبَ والعَجَب. لكنّ الأهميةَ العظمى تكمن فى تعلّمِك دروسًا حتى تكون مآبك لجروحِك التى لم تَطِبْ، فتَطِب. ونصيحةٌ لك.. احتفظ بجزءٍ من قصتك لا يقرؤه العابرون.. فستعد.

نحن نعيش واقعًا سخيفًا وسَطَ شخصياتٍ تجمعُ من الخصال ما يعجز العقل عن حسبانها. وما تختلف بين خصال الحقارة وما تحتويه من اشمئزاز، وخصال الجمال وما تحتويه من حبٍّ واحترامٍ وأمان. ليس كلٌّ منا على درايةٍ بها، ولكننا لم نصبح فقط وسطَ كائناتٍ مظلمةٍ فى عالمٍ مظلمٍ لا مأوى فيه إلا لمن لاذ بالفرار إلى مضجعه أو إلى مُحتضنِهِ ومحتوِيه، بل نحن فى سباقٍ بين الأحداث. أحداث تعلو وأخرى تدنو مثل حركاتِ الشمس، وأحداثٍ تتأرجح بين حُبٍّ وبُغضٍ وفرحٍ وتغيرٍ ففراقٍ وصدمةٍ وحزنٍ وحنينٍ وانطفاء!

ولإن نظرنا إلى رؤيةٍ موازية فلإنْ نجدَنَّ أن هناك شخصيةً إذا دخلت قصة حياتك فستجعل من اليباب زرعًا ومن الأطلال شَيدًا هائما. تلك الشخصيةُ التى تدخل قصتك فتسيران معًا فيها، وتصبح قصتكما قصةً واحدة فى غمارِ رواية الحياة. تلك الشخصيةُ التى تحلى مرار عيشِك. محتويك ووطنك الثانى بعد أمك. من ترتمى بين يديه آخر الليل والنهار. من تسهران تحت سماء غسق ليلٍ عاتم. وتسيران معًا فى خضم ظلمات الحياة ونورِها، وتعبران بحور الحياة وأطوارَها. تلك هى الشخصيةُ الدائمة فى قصتك وأنت كذلكَ دائمٌ فى قصتها. إذ تمضيان معًا عمركما وإلى آفاق الحياة وخيالها وزواياها تغدقان.

وسلامٌ على هذه الدنيا إذا دمت بين محتويك وشبيه روحك.. بين من يألم إذا أُلِمت. وطوبَى لك إذا وجدت نفسك معه فى نهاية المطاف.. وتستطيع أن توقد أنفاسك وتغمض جفونك بأمانٍ معه فى غمارِ هذا العالم العابر!

نام (حامد) مغطًّى بفراشٍ قد أحضره فى حقيبته. وبقىَ (حسن) فائق البال كعادته يفكر. فأخرج مذكرته وقلمه وطفق يكتب:

أذكر أيأما كنت قد بلغتُ ذروة السعادة المحشوة بطعِم الخوف! أذكر أيأما كان الخوف يحاوطنى بين يدىّ وخلفى وبين ثنيات عقلى، أذكر أيأما كانت رائحُة الخوف تغشى شراييني النابعة وراء ستار التوتر وأنا إذ كنت فى سعادتى المستعجلة. إنه لشعوُر أشبه بأن تكون قد وصلتَ حافَة قمة الجبال العالية وتجد عنقاءَ مستشيطًة غضبًا منك! هذا الشعور يحاوطنى من الداخل أيان أسعُد حتى كثيرًا ما قطع علىّ سعادتى!

أنا الكاتب بلا ديوان.. أنا الذى أرخى عليه الليلُ سدوله السوداء سوادٍ قاتم. ولم يتركنى الليل البهيم وشأنى حتى انقضت أيامىَ بخيبةٍ وندمٍ فأمسيتُ صارخًا من أعماقِ قلبٍ كوته الشفقُة على أيامٍ ليته قابل ما فاته فيها. وغدوتُ بائسًا شريد البال على ما أتى به الزمان إلىّ، والأفكارُ عصيفٌة لا تموت بداخلى أيا حضرَة الزمان! أو قل إننى كاتبٌ بلا عنوان!

لم تخلُ رأسى قط من التفكير.. إنها مثل حركة الكواكب حلو الشمس.. كلما ينتهى عقلى من شيءٍ يدخله شيء جديد، ينتهى طريقٌ فيبدأ طريق آخر وكأنى أجدد عهدى مع التعاسة! وقد أُثقِل كاهلى حقًا.. أتمنى لو أرتاح قليلًا.. أو أفرح لبرهة!

وإنى لآسفٌ لكِ يا نفسى على كل اللحظات الأليمةِ التى عشتك معى فيها، آسفٌ على كل ما أشعرتك به من سعادةٍ ولكنه لاح كما تغرب الشمسُ وتلوح. آسفٌ لك يا نفسى على كل ما أشعرتكِ به من لذةٍ وقد خُذلتِ. آسفٌ على ما أريده ولا تبالى لى الأيام.. وآسفٌ لكِ على كل ما أمر به!

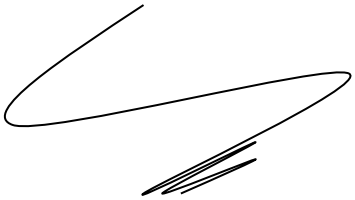

وضع (حسن) أوراقه جانبًا وقام خارج الخيمة للتمشى قليلًا، حيث توقفت السماء عن الإمطار. وفى أثناء ما كان واقفًا بالخارج.. سمع صوت خرفشةٍ بالقرب منه. لكن المكان مظلمٌ جدًا فهو صحراءُ واسعة لا ضوء فيها غير ضوء القمر. والصوتُ يعلو ويقترب فأسرع سريعًا إلى الداخل يوقظ (حامد).

فلما أيقظه قال بصوتٍ خافض شديد القلق:

– «استيقظ بسرعة.. سمعتُ صوتًا مخيفًا فى الخارج، ربما شخصٌ ما أو حيوان ما!!».

قال (حامد) وهو لم يستوعب بعد أنه استيقظ وشخص أمامه يحدثه:

– «ماذا.. كيف.. من أنت؟».

– «بئسًا ليس وقته.. هُمّ جالسًا أيها الغبى!».

فاعتدل وقال:

– «ماذا يجرى؟».

– « استيقظ بسرعة.. سمعت صوتًا مخيفًا فى الخارج ربما شخصٌ أو حيوانٌ ما!!».

فلما همَّ (حامد) سريعًا للجلوس قلقًا هو الآخر.. زاد الصوت المخيف حولهم ويبدو أنه اقترب منهم. فيقترب الصوت ويدنو والنار مُوقدة بالداخل حتى وُقِدت أنفاسهم هى الأخرى من ريب حركة الأقدام التى تبدو وكأنها تستعد لتهجم عليهم. وأفاق (حامد) من نومته التى قد أراحته –شُوَيْئَةً– من سير هذه الكيلو مترات. لكن من لم يشقَ فى الحياة؟! فيسمعون صوت هذا الحيوان الذى يلهث ويبدو أنه كلبًا يحفر فى الأرض بأصواته الوحشية المميتة التى تشبه شخير ذئب. فيعلو صوت أقدامه حينًا تقترب جدًا وكأنه سيهجمُ ولكنه يبعد حينًا آخرَ وكأنه يسقيهم كأس الخوف والارتجاف.

زاد صوت حركة الأقدام وكأن تلك الدابة تعلم أن وجبتها بالداخل فتلهث وتلهث. و(حامد) و(حسن) لا يملكان أى عتاد غير أن وجدوا فأسًا فى الخيمة تبعد عنهم بمترين. وينظرون إلى بعضهما يتحدثون بلغة الإشارة كأنهم يقولون «ماذا سوف نفعل؟!!»، وتدق قلبوهم دقًّا دقًّا عند سماعهم صوت هذا الكلب يزداد هياجًا فى حركته ولهثه كأنه يتضور جوعًا لالتهامهم... حتى صمت صوته فجأة... و(حامد) و(حسن) ينظران إلى بعضهما وهم مثبتين فى مكانهما كالعمود الحجرى.. لا يسمعون شيئًا.. فيتحرك (حامد) رويدًا رويدًا إلى خارج الخيمة ليرى المكان.. فإذ يرى الكلب يجرى تجاهه على بعد خطوات جرى الثيران الهائجة فيعوى عليه بصوته الذى أربك قلوبهم فيفزع (حامد) بصوته ويهمّ سريعًا إلى داخل الخيمة فتخونه قدماه ويتعثر أرضًا والكلب يقترب بعوائه المخيف ذلك ويقفز وهو يجرى فى منظر وحشى كأنه يخشى أن تهرب فريسته فيمزق أشلاءها الشهية ويشرب من دمهم. فإذ ينتهل (حسن) الفأس ويجرى بتجاه الكلب الذى قفز

قفزته على (حامد) ومزق بذلته من الظهر حتى أنقذه (حسن) بضرب الكلب على جنبه، فيحدث الكلب صوتًا صخبًا إثر الكدمة ويفر منهما إلى أحشاء الصحراء الظلماء التى تحوى بداخلها الخوف.

أنهضَ (حسن) (حامد) وأجلسه بداخل الخيمة يتعين مما أحدثه الكلب، لكن لم يجد جرحًا من أنياب الكلب. فاستطاع (حسن) أن يسعفه سريعًا وغطاه. وبات (حامد) يصرخ منه بداخله فى ليلته. وباتوا ليلتهم فائقين لم يُغمض لهم جفنٌ من خوفهم الذى لزمهم خشيةَ أن يأتى حيوانٌ آخر وينتهوا به.

كل واحدٍ منهم سرقه تفكيرُهُ إليه منغمسًا فيه. أحدهما يفكر فيما سيفعله اليوم التالى، والآخر يفكر ما إن كان سيعيش اليوم التالى. أحدهما يفكر طول الطريق وما تبقى منه، والآخر يفكر هل سيكمل الطريق أم يعود من حيث أتى. أحدهما يفكر وينغمس فى التفكير فى حال قريتهم التى تركوها فى غمار هذه العواصف الرملية، والآخر يفكر فى كم أن

(زكريا) محظوظٌ وربما يتناول شايه الآن بمفرده. وإن كان يشربه وحيدًا فإن طعم الشاى لا يروق إلا بجلسةٍ رائقة مع رفيق. وإن القرى بلا أصدقاء مثل الشاى بلا سكر، أو كالفتاة بلا مستحضرات تجميل.. وكمثل بعضهنّ بها..!

وحسب مرافقتك شخصياتهم يمكنك معرفة مَن أحدهما، ومن الآخر. ظلوا يفكران بلا كلام. كلٌّ منغمسٌ فى تفكيرٍ أدخله إلى أرض العالم الذى يفكر به وسمائه كأنهم يعيشون ذلك الحدث، حتى أنْ اختفت من أعينهم رؤية الخيمة والنيران التى أمامهم وتحولت إلى ما يتخيلونه فى عقولهم الساهرة.

أحيانًا كانوا يكسرون قفل الصموت التام الذى لم يُسمع صوتًا فى هذه الليلة سوى صوت الرياح التى تدفع الرمال يمنى ويسرى، وصوت تآكل الأخشاب من النيران الضالعة بها. كانت النيران تدفئهم حتى فُتحت عليهم السماءُ وأنزلت أمطارها. والبرد صار يحوم حولهم ورُصَّت الخيمة من داخلها

بالهواء البارد. ولرحمة الله عليهم.. فقد كانت حرارة النار التى سخرها الله لهم تدفئهم كثيرًا. لم ينَما الليلة كاملة وظلّا بها فائقَين حتى اليوم التالى يتحدثان قليلًا ويصمتان أكثر، ويشاهدان طلوع الشمس. صلّا الفجر وبدؤوا فى إعداد أمتعتهم ليكملوا مسيرتهم التى اتخذت شعار المعاناة مشتعلًا بنيران المجهول.

* * *

فى صباح اليوم التالى والشمس الحمراء لاحَ منها نصفها الأول فوق خط الأرض. وتنفس الصبح وأزيل الغطاء الأسود وبُدِّل بأبيض. واستيقظت الدواب واستيقظت عصافيرُ الصباح وحشراته يلقين تحيتهن على أقرانهن معلنةً عن استعدادٍ ليومٍ جديد، بمتاعبَ وهموم وأفكار وتصادماتٍ جديدة، وعقل لا يريد الكلام وغصْبًا يتكلم، وآخر يتكلمُ ولا يراد له الكلام.

يذهب (حسن) و(حامد) يكملان ما مضاهما من مسارٍ إجبارىٍّ وجبَ لهم سيره حتى النهاية. فيتحدثان إلى بعضهما بعضًا يخففان عناءَ وملل الطريق الطويل.

كان اليوم عاصفًا والصحراء باهتة والسماء رمادية سحبها. ولا يوجد خط واحدٍ لأشعة الشمس نافذة من بين السحب الكثيفة. وكانت الأجواءُ أمامهم مليئة بالرمال المتطايرة فلا يرى أحد ما أمامه بعشرة أمتار. ولا يستطيعون فتح أعينهم خشية دخول الغبار. فامتطوا على متن الفرس (ابتسام) ثم انطلقوا هائمين نحو (السنبلاوين).

ذهبوا وظلوا يمشون مدةً يتحادثون ويتداركون دربَ الصحراء وعوالمها ولونها المائل لصفرة الموز الداكن. ويضحكون ويطعمون (ابتسام) ويلهون، فيركب (حامد) فوق الفرس ويركض أمامه (حسن) متسابقين من يصل أولًا إلى نقطةٍ رسموها فى عقولهم.

ولأنهم فى موسم أيامٍ عاصفة وتيارات رملية وأمطار.. أتت عليهم عاصفةٌ لاحظوها من بعيد وهى تأتى إليهم ضخمةً عالية كأنها وحشٌ آكلٌ يلتهم ما فى طريقه. فنظروا حولهم فى فزعةٍ ينظرون فى كل مكان حولهم فى غضون ثانيتين من شدة المنظر. فرأوا صخرتين بعيدتين.. فجروا إليهن يتناهدون وتقترب منهم العاصفة تكاد تأخذهم فى طريقها فترميهم كيلو متراتٍ بعيداتٍ إذا أبقتهم أحياء إن لم يتسارعوا. فركضوا سريعًا حتى وصلوا إلى الصخرتين واحتموا فيهنّ، وقد قويتا على الريح والرمال المتطايرة واستطاعوا النجاة.

وبعدما انتهت العاصفة والتى دامت ربع ساعة متماسكين باقين على قيد الحياة.. انتهت وانكشفت الغمة وهدأت الأجواء. ولكن.. لم يكن جميعهم قد نجى.. فتكريم الله للإنسان بأرجلٍ وأيادٍ تستطيع السيطرة على كل ما فى العالم.. ساعدهم على النجاة غير الحيوان المسكين الذى لا يملك الارتكاز والحفاظ على توازنه. فقد أخذت العاصفة (ابتسام) وودعتهم بأخذها. أخذوا يبحثون عنها ويصيحون باسمها ولكن لا صوت لحيوانٍ يصعد فى هذا المكان الفاغر الامتداد.

استعادوا ثبات أجسادهم وشعورهم. وأدركوا أنه ينقصهم حقيبة.. فقد طارت مع العاصفة. وبدؤوا يتحركون محزونين على فراق (ابتسام)، والحقيبة التى تشبه الأخرى. وفى أثناء سيرهم وجدوا راعيًا يرعى قطيعًا يسند ظهره على شجرة فذهبوا إليه سائلين.

فيسأله (حامد):

– «سلامُ الله عليك».

– «عليكما سلامٌ من الله».

– «إن أردت لنا مساعدةً، عن مركز المدينة جئناك سائلين».

– «أوَلستم هنا مستوطنين».

– «كلا، إنّا إلى هنا لغرضٍ قادمون».

– «ومن أين أنتم مقبلون؟».

– «إنا من بعيد القرى جئنا مسافرين».

– «ها، فإن أردتم مركز (السنبلاوين).. فلهذا الطريق تكونوا سائرين، فعلى (نوب طريف) ستقدمون، ثم بعد ذلك فى استقامةٍ تكونوا لها واجدين».

– «حسنًا.. نحن لك شاكرين».

وقبل أن ينصرفا، لمح (حامد) كلبًا برفقته يرعى به قطيعه من الخرفان والأبقار يشبه ذاك الذى قد هجم عليهما عند الخيمة.

فقال له:

– «هذا النوع من الكلاب يبدو شرسًا، أوليس كذلك؟».

– «هذا آخر واحدٍ أملكه، فقد فقدت اثنين غيره. ذات يومٍ عصيف فقدت الكثير من الخراف وكلبان».

صمت (حامد) قليلًا ثم قال وهو يضم يده اليسرى أفقيًا إلى وسطه، ويُركز يده اليمنى على كف اليسرى واضعًا إصبعه السبابة على فمه:

– «ربما أخذته العاصفة إلينا فيأكلنا نحن».

– «ماذا تعنى؟!».

– «يوم أمسٍ كنا نخيم حتى هجم علينا، ولولا رحمة الله بنا لكنا وجبته».

– «وأين كانت تلك الواقعة؟! أرأيتم كلابى؟!».

– «كنا فى هذا الطرق حيث جئنا منه.. وكانت هناك خيمةٌ تبوأناها مبيتًا.. لكنه بالتأكيد غير مساره بعيدًا الآن».

– «أتقصدون خيمتى؟! لقد ضلّتنى عنها تلك العاصفة الثورية!».

– «حقًا! كيف؟!».

– «أنا أنزح كل أسبوعٍ إلى أماكن بعيدة مختلفة أتاجر وأرعى أغنامى ليأكلوا. فأقيم خيمةً أقيم فيها يومين ثم أعود بيتى. إلا إن العاصفة أتت مجراها وجرفتنى ورعيتى بعيدًا عن تلك الخيمة وفقدت كثيرًا منها. ولم أجد إلا كلبًا واحدًا وهذا الحشد».

– «وكأن كل شىء مُدبّر.. حسنًا علينا الذهاب.. نأسف على إطالتنا هذه».

– «طبتم وطاب ممشاكم».

– «حياك الله».

أعطوه ظهرهم متجهين نحو ما قاله. قال (حسن):

– «ماذا كان يقول؟».

نظر إليه (حامد) متفاجئًا متبرّجًا صامتا. فقال (حسن):

– «لقد نسيت ما قال ولم أمعن التركيز! أين هو ذلك البلد إذًا؟!».

– «إن أتيت معِيَ دربًا فلا تسألنّي عن شيءٍ حتى أبلغنّ لك بسؤالك!».

أخفض (حسن) رأسه قائلًا:

– «طيب».

ظلوا يمشون دون كلامٍ حتى فتح (حامد) قفل فمه يقول:

– «أتذكر ذاك الكلب الذى هجم علينا؟ حمدًا لله أنه لم يكونَا الاثنان معًا وإلا كنا عظامًا الآن!».

ثم أعقب:

– «سبحان الذى ضل رجلًا عن دربه حتى يهب لنا مكانًا ننام فيه ليلتنا المطيرة! وسبحان الذى سخر الأسباب فنكون فى اليوم الذى خرج فيه هذا الرجل وأقام خيمته وأضاع طريقه إليها!».

– «أجل.. لله الحمد من قبل ومن بعد».

– «إن كل شيءٍ وراءه خيرٌ لنا حتى وإن كان الشيءُ مُحزِنًا مكروها!».

* * *

هل تؤمن بالصدفة؟ أتؤمن باقتران الصدفة فى شتات أحداث حياتك؟ هذا الأمر يحتمل الصواب والخطأ.. فإنه تأملى!

إن كل شىء فى هذه الدنيا يسير بحكمةٍ هى حكمة خالقها وخالق كل شىءٍ وخالق تدابيرها ومُحكَماتها ومحكمات محكماتها بتحكّمٍ ودرب الدابة ودابّتها وصفوَ الأحداث وسيئها! ليس أهلك الذين وقعت فيهم صدفة.. بل مدبر لك أنهم آبائك وأجدادك وأبناؤك وذراريك.

فعندما يرسل الله لك رسائلَ فهل تعتبر صدفة؟ بلا أيها القارئ المفكر.. إنه لا يوجد صدفة، بل هى اختيارات.. اختيارات عقولنا ونتاجاتها. فمثلًا شرائك هاتفًا نقّالًا اليوم ورفضك الأسبوع القادم، فتجد فتاةً جميلةً قد تعرفت عليها بالجامعة وحظيتَ برقم هاتفها وإلا ستضيع منك.. هذا ليس بصدفة، بل نتاج خيارك. اكتشاف الجاذبية من سقوط التفاحة وحدها ليس صدفة، فلم تسقط وحدها، فعامل الجاذبية إضافةً إلى احتمال وجود سببٍ آخر مثل ثقلها وضعف عودها الممسوك بالشجرة وشدة الرياح أدى ذلك إلى سقوطها.

واكتشافها ليس صدفةً أبدًا، فعدم تركها وكأن شيئًا لم يكن، والتفكير بها وبسبب وقوعها ليس بصدفة، وإنما نتاج اختيار عقلٍ وتفكره. اكتشاف البكتيريا من عفن الخبز ليس بالصدفة، فتجمُّع البكتيريا الخضراء على عفنِ الطعام فى الكوب لم يكن صدفةً أبدً.. فهذا خلق الله! وقد اختار العالِمُ أن يفكر فى سببها واستطاع بعبقريته أن يصل للسبب حتى اكتشف هذه البكتيريا.

تفاجئك بضيفٍ عزيز عند رجعوك إلى البيت أو تفاجئك برؤية شخصٍ تحبه ليس صدفة. فهو قد كان فى طريقه نحو وجهته، وأنت كذلك، وكانت الوجهتان فى المسار نفسه. الأمثال لا تنتهى. فدخول شخصٍ ما حياتك ليس بمحض الصدفة وإنما هى قصصٌ كتبها الله وأشرك بينهنّ حدثًا هو باب الدخول، مثل ارتباطكما فى نفس السنّ، فى العام الدراسى نفسه والكلية، فى العمل والمهنة، فى المشكلة نفسها أو حتى فى الطريق!

فإما أنه شخصٌ دائمٌ فى حياتك أو أنه أتى فقط سببًا من أسباب الله فى سير أحداث قصتك التى تسيرها وحدك. وإن من هجَرك لم يكن ليبقى، ليس لأنه فترةٌ فى حياتك، فمنهم من دخل حياتك ليعطيك زادًا وخيرًا.. ومَن ليختبرك.. ومن ليستغلك.. ومن ليعلمك.. ومن ليخرج الجميل الذى بك. من دخل ليوقظك ويرشدك من ضلال.. ومن دخل سائلك فى أمرٍ يخصه. ومن كان مجرد عابرٍ عاديٍّ قضى أجله وكنت تحتسبه ملازمًا إياك.

وإن الأعزّاءَ والأحبّاءَ لا يأتون صدفةً.. بل إن الله أراد أن يرضينا ويعطينا قدر أنملةٍ من فضله حتما يعطينا المزيد مما يخبئه لنا. وما دامت نتائج اختياراتنا تقودنا.. فينبغى لنا أن نحسن الخيارات ونعقلها، ونعطيها قدرها من التفكير قبل الأداء، حتى تعجبنا نتائج تفكيرنا واختياراتنا ولا نندم عند فوات الأوان.

رعب المدينة

انطلق (حامد) و(حسن) متجهان إلى مركز البلدة، وعندما وصلا لم يجدانها. كانت المدينة خالية تسمع فيها صوت تلاطم أوراق القمامة بالأرض بفعل الرياح.. اختفت الحياة بالمدينة واختفت بها آثار البشر.. ماذا حل بها؟ أين ذهب الجميع؟ تسأل نفسك سؤالًا من قبيل «أين اختفت مياهُ البحر؟!» لا أحد يعلم. سارا فى اتجاهاتٍ مختلفة يبحثان عن أى إشارة تدلهم لأى شىء. ذهب (حامد) فى شارعٍ ليبحث فى الجهة اليسرى وذهب (حسن) لليمين. أخذ كل منهما يخمران فى البحث.

وجدوا البيوت جميعها مبنية من الطوب الأصفر وغير ذلك مما بنى به أجدادنا بيوتهم المبروكة. ووجدا غرفةً من الحديد كأنها مخزنٌ عام. كانت المدينة هادئةً جدًا ليس بها أى بشر ولا أى صوت. الصوت الوحيد الذى ينشأ –كل حينٍ وآخر– هو صوت تلاطم الغبار بالأرض من الرياح.

يسير كلٌ منهما وحيدًا فى طرقاتٍ صمتها يخيف أكثر. صمتها يجعل قلبهم يحبس أنفاسه فإن حدث أىُّ صوتٍ حولهم فجأة سوف يفزعون.. المكانُ هادئٌ تسمع فيه الصوت الذى تسمعه عندما تضع أذنك عند فوّهة الكوب. وجد (حسن) فى طريقه بيتين مفتوحين أبوابهما وليس بهما أحد. فدخلهما فى طريقه عسى أن يجد بشرًا أو طعامًا، لكن البيوت خاليةً تمامًا من أى شيءٍ قد يفيد.

ظل يسير فى الطريق وقلبه تزيد دقاته من صمت المكان المريب. وما إن كانوا يسيرون.. حتى وجدا أنفسهما فى قِبلة الآخر فجأة، فصرع (حسن) بصوته فزِعًا من رؤية (حامد)

أمامه فى شارعٍ ضيقٍ لاخٍّ لا يؤدى سوى إلى اتجاه الآخر وكأن عجلة الزمان والمكان تعطلتا ولا يوجد مسار سوى هذا!

وبعدما تجمعا، انتهل (حسن) زجاجةَ مياهٍ من الحقيبة التى يحملها (حامد). وظلّا واقفين بضعة دقائق يفكران ما سيفعلانه بعد أن وجدا قريةً كاملة خالية تمام الخلاء من بشر وصوت. فجلس (حسن) أرضًا ساندًا ظهره على جدارِ بيتٍ يريح قدميه التى تتعبه دائمًا حتى من المشى القليل.

وفى أثناء حيرتهم التى دامت دقائق كثيرة اقتربت لنصف ساعة.. سمعا أصواتَ صراخٍ تأتىَ من بعيد، فذهبوا إليها مسرعين ليعلموا ما هذا. فوجدوا أناسًا مقيّدين فتًى فى سنّهم آخذينه إلى مكانٍ واسع به غرفٌ حديدية كثيرة. فدخلوا غرفةً بجوار غرفتهم بها ثقبٌ يمكنهم رؤية ما يفعلون.

وينظرون منها يتابعون حتى وجدوا الفتى عاريًا تمامًا من كل ثيابه! ويداه مكتفتان حانيًا للأمام على برميلٍ حوله أربعة أشخاص جانبه ووراءه! وشخصٌ بجانبه يحمل سكينًا كبيرًا

يذبحون به الأبقار والبَهيم. مرت دقيقةُ صُمُوت.. حتى سمعوا صوتَ طرقةً أسكتت المكان.. وقُطعت رأس الضحية.. وكانت رؤية الدماء وهى تسرى على الأرض أمامهم، وكأنها برميلُ مخللاتٍ دُلئ على الأرض، تُرجِف قلوبَهم وتوترها. إذا علم أولئك السفاحون بوجودهم سيكون مصيرهم كدأب مصير ذلك الفتى المسكين الذى سكنت روحه.

أخذوا يتراجعون عسى أن يهربوا من هذا المكان اللعين. ولكن ليس منا من صفى مسارُ طريقِه. فلا طريق سلسٌ دربه! ففى أثناء ما كان (حسن) يتراجع ويلتفت بوجهه.. اصطدمت رأسه فى سيخِ حديدٍ معلق فى سلاسل أوقعه على الأرض أفقدته صوابه. فعلموا مكانهم، فحمله (حامد) على كتفه وجرى به خارج المكان. وتسارع وتكاد أنفاسه تستورد دمًا من قلبه لتكمل شهيقها من صِعَب الموقف الذى فيه!

وفرّ إلى خارج المبنى هالعًا وأولئك السفاحون يتراكضون وراءه وقد هَرِم قلبه من الجرى حاملًا الحقيبة و(حسن) الثقيل كثقل البَهيم. حتى نجح فى أن يضلل أعينهم من رصدهم إياه. وراح بعيدًا جدًا حيث لم يستطع أن يقاوم انغلاق عينيه حتى أخذت تظلم شيئًا فشيئًا، وأُغلقت وفقد صوابه هو الآخر من الإنهاك والخوف وأُلقِى جسده أرضًا.

* * *

لتتخيل أن تصحوَ من نومك وتجد نفسك بلا مأوى ولا متاع. وتصحوَ كراعى غنمٍ فاق ولم يجد رعيتَه. فتنظر حولك تجد أرض يبابٍ خاليةَ الأنامِ والحياة. وتنظر أعلاك فتجد سماءَ زرقاء داكنة تقترب إلى الغروب. فتسير ضالًا بثيابِك البالية وحذائك المهترئ لا تدرىَ عن حالك سبيلًا. وتسير واسع العينين شاغل الرأس حائرَ البال!

كان هذا الوصف لا يليق إلا عليهم عندما أفاقوا. فلا يعلمون أين (ابتسام) ولا يدرون حالهم غير أنهم فى بيتٍ من الطوب والطين، ورجلٌ كبير السن كجدهم.

أفاقوا ونظروا حولهم يحملقون فى المكان حتى أتى عليهم بكوب شايه، ويقول:

– «استرحا مكانكما.. لا تخافا من شىء. أنا اسمى (يحيى)، قد عثرت عليكم فاقدين وعيكم على الأرض فأخذتكم عندى. سأذهب وأعدّ لكم كوبين شاى.. استرحا».

نظرا إلى بعضهما وسألا أنفسهما أين يكونان ومن أين أتى هذا الرجل رغم أنهم لم يتركا زاويةً فى البلد إلا واستكشفوها بأعينهما.

حضر عليهم الرجل وقال:

– «كيف حالكم الآن؟».

(حامد):

– «نحن بخير. ولكن.. تحاور رأسنا أسئلةٌ كثيرة!».

– «تفضلا، خذا راحتكما».

– «أين نحن الآن وكيف عثرت علينا وماذا حدث ونحن غائبين وعيًا ومن كانوا هؤلاء؟».

فرد مازحًا:

– «سأسحب كلمتى، لا تأخذ راحتك أبدًا!».

فهَمْهَمَ الثلاثة بضحكٍ طفيف، وبدأ يتكلم:

– «هذا بيتى وأنتم هنا ضيافٌ عندى فى أمان الله. قد خرجتُ باحثًا عن ابنى (فارس)، أعتقد أنه فى سنكم نفسها أو أصغر قليلًا، لكننى بحثت كثيرًا ولم أجده للأسف! قد ذهب يبحث عن طعامٍ للقطيع يكفيهم الليالى المقبلة تحرصًا من العواصف والأمطار. لكن لم يعد منذ يومين حتى الآن!

أما عن (السنبلاوين) وما حولها.. فهذا يطول شرحه، سأخبركما لاحقًا بعدما تفِقان من هذا. لكنهم عمومًا ارتحلوا يعيشون فى بيوتٍ عشوائيةٍ حولها فى الأجوار.

فبعدما عجزت عن إيجاد (فارس)، رحتُ إلى (السنبلاوين) فوجدتكما مرميّين أرضًا كأنكما هاربين من وحش!».

فقال (حسن) مشبّهًا بكلامه لما حدث:

– «بالفعل قد هربنا من وحش»

– «كيف؟ احكيا لى ما حدث معكما بالضبط!».

وبعدما حدّثا العم (يحيى) عما رأوه بأعينهم هناك وخبّروه عن ذلك الفتى ووصفوه له، لم يتمالك العم (يحيى) نفسه حتى ارتعشت يداه وجف بدنه لا يصدق ما سمعه. فإن ذلك الفتى يكون ولده الوحيد الذى يرعاه هو والقطيع وقد فقده الآن! وهبط ضغط دمِ العم (يحيى) حتى أغمى عليه.

* * *

لما أفاق بعد مرور نصف ساعة بمحاولتهما إيفاقه.. أشربوه كوب ماءٍ فيه سكر واستعاد استيعابه. تحدثا معه يخففان عليه ما ابتُلِيَ به. وبعدها تركوه ينام وخرجا من البيت.

كان بيت العم (يحيى) من الطين والطوب كدأب بيوتهم وفوق سطحه قش. مبارك الدفء وفيه من الفواكه والجبن القريش والبطاطس الشهية والفطير بالعسل الأسود وخيرات الفلاحين التى تحلو لمعدة القارئ. وتحوطه حقولٌ خضراء واسعة، وأرضُ رَقَاقٍ ترابٍ فارغة نظيفة من قمامات الشوارع التى نراها اليوم. وعلى مدِّ نظرهم يرون ترعةَ مياهٍ نظيفة مثل أيامهم، حتى أنهم يملؤون فخارياتهم منها ويشربونها. وحولها إوَزٌّ وطيورٌ وأغنامٌ يرعاها العم (يحيى). وكان أمام بيته مكان لجلسة الجالسين يتخذون منها مجلسًا يتسامرون فيه لياليهم الطويلة التى يضيئها ضوءُ القمر ونارُ الوقود الخامدة فى الألواح التى يعدون عليها قهوتهم وشايهم اللذيذ فى لياليهم الباردة.

وفى صباح اليوم التالى.. أتى إلى البيت رجلٌ وكانوا جميعًا نيام. فقرع الباب وأفاق (حامد) وذهب ليفتح له. فإذ يتفاجأ بأنه راعى القطيع الذى التقوا به جالسًا تحت الشجرة وقت العاصفة ووجّههم إلى حيث هم الآن. فتفاجأ هو الآخر وسأل (حامد) عما يفعلونه هنا. استيقظ (حسن) والعم (يحيى) وحكى كل واحدٍ منهم عما بداخله من كلام. أخبرهم العم (يحيى) أن هذا الراعى هو أخوه واسمه (حفيظ) وله ابنةٌ اسمها (ليان).

حكى (حامد) للعم (حفيظ) عن سبب وجودهم هنا. وحكى هو و(حسن) لعم (يحيى) بالتقائهم به من قبل. وحكوا الثلاثة للعم (حفيظ) عما حدث لابن العم (يحيى). وأخذوا يتحدثون جميعهم مدة ساعتين حتى قرر (حامد) و(حسن) أن يغادرا البلد ويرحلا إلى قريتهم. وودعا العم (يحيى) بعدما اطمأنّا على حالته ورعاية العم (حفيظ) له. وخرج (حامد) و(حسن) من البيت وقد نويا الرحيل والعودة إلى الديار.

* * *

(٢)

لَيان

إن الأرواحَ عندما تلتقى ببعضها فإنها تسكن وتَخمد كما تخمد النيران الضليعة فى اللوحِ المحروق. وإن أرواحنا الهديمة لَتسكن فى من تجد من يسقيها فتزدهر فتكون سقيى الروحِ ومحتواها، كمن كان شقيًا واهتداها.

فسلامٌ على من دخل الفؤاد وقد تبوأه منزلًا فينا وسكن روحنا فى صمت. سلامٌ على من سقى روحنا الهارمة فأنِست له ولم ترَ به أيَّ شقاءٍ يدنو، بل وجدنا معه الحياة ترنو. سلامٌ

على من يحتوى خوفنا وضعفنا بحنانٍ من لدُنه. من لا نشعر معه بغربةٍ أقحمتها فينا الحياة. سلامٌ على من تطمئن معه روحنا وتهدأ وكأنما -يطبطب- عليها وتجد معه الأمان.. من لا نشعر بالحرج ونحن معه.. ومن لا نتكلف أو نكذب أو نتقمص شخصياتٍ تختلف عن طباعنا. سلامٌ على من لا نخاف أن نكون حِملًا عليه ونحن معه. سلامٌ على من يثق بنا فوثقنا بأنفسنا واستقوينا به فحيينا على الكفاح فى الدنيا. سلامٌ على من هو خيرُ رفيقِ دربٍ لنا فرددنا له الخير حبًا وسعدنا معه بأقل مجهودٍ يُذكر. سلامٌ على من يهتم بنا دون كللٍ أو ملل.. من هو سندٌ لنا.

سلامٌ على حنون القلب طيب المعشر. طويل البال.. بسيط الطباع ولا يميل للتكلف أو البهرجة. القنوع، الذى يتقبلنا كما نحن، ويرضى بحاله نفسه. الذى لا يترصد كلامنا أو فِعالنا بملقط. سلامٌ على من حلَّ بقلبه الحب والوفاء وصدق المشاعرَ تجاهنا. وسلامٌ على من لا يدنوَ إلى قلبه النسيانُ بالهجران إن بَعُدَ أميالًا بعد أميالٍ أزمانًا بعد أزمانِ.

وسلامٌ على من نظرتُه إلينا وضحكته نصرةً لنا وقت انتكاسِ. وسلامٌ على من تتطور أطوارُنا وتشيخ ملامحنا وهو فى قلبنا - مستربعًا- كاحتباسِ.

هى كالوردةِ التى تفوحُ عطرًا وليست مجرد كلماتٍ تخرج من فمها تتبيّن فيها معالمُ شفاءٍ للروح المرهقة. إنها جميلة حتى اتفق على جمالها كل من يراها. جميلةٌ حتى تعطيك الإحساس بالراحة إذا نظرت إليها فترتاح نفسُك المتعَبة.

لها عينان بنيتان، وحجمها طبيعىّ، إلا أنها تعطيك إحساسًا كالذى تشعر به إذا سمعت أغنية تركيةٍ حزينة. وتشعر بالغربة فى داخلها بنظرتك إليها ولشعرت أنك منوَّمٌ مغناطيسيًّا وأنه لا يمرُّ حولك زمانٌ ولا إنسان!

ولها شفتان متوسطتا الحجم ذوات اللون الوردىّ. رقيقة الوجه. بسيطة اللباس. أنفها حجمه عادىّ، لا بالصغير ولا بالكبير. وخديها بحران، تغوص فيهما النعومة. وإن فيها

تفاصيلَ وجهٍ يحمل فى ثناياه إدلالاتٍ مترقرقة كالحسَنِ البابلىّ الذى يفوحُ حنانًا وأمانًا.

وما تملكه من صوتٍ به عذوبةٌ كعذوبةِ حديثٍ حلوٍ لخِلٍّ إلى خليلِه فى ليلةٍ من ليالى الصفا.. فالحديث معها على هذا الصعيد. إذ يُدخلك عالمًا لا تريد مغادرته.. عالمًا تشعر وكأنه يحفُّك راحةً وسكونًا يطمئنان قلبك المفطور..!

* * *

سار (حامد) و(حسن) متجهين إلى الطريق الرئيسى المؤدى إلى الصحراء فيرجعون إلى بلدهم «ميت غراب».

يقول (حسن) متحسرًا:

– «وهل سنمضى كل هذا الطريق إيابًا على الأقدام؟!».

ظل (حامد) صامتًا لا يدرى ماذا يقول. وواصل (حسن):

– «اشتقنا إليكِ يا (ابتسام)! .. حصل خير.. ماذا نقول.. كدا كدا حياتى بايظة!».

وفى أثناء ما كانوا يسيرون داخل (السنبلاوين) حتى يصلوا إلى الطريق الرئيسى حيث أتوا منه.. التقوا بأولئك السفاحين، إذ وجدوهم فى الجهة المقابلة بعيدًا قرب المخرج. فرأوهم وجروا خلفهم وهرع (حسن) و(حامد) فى الجرى. وتوغلوا إلى حارات البيوت واحتموا فيها مختبئين كاتمين أنفاسهم. إلا أن استطاع أحدُ هؤلاء السفاحين أن يعثر عليهم وصاح فاضحًا مكانهم للباقين. وقبل أن يجرى بتجاههم ليقضى عليهم

ويمسك بهم.. تمكنَا من الإفلات منه بلكم (حسن) له على رأسه، و(حامد) بضربةٍ على رجله وأوقعاه أرضا.

وجاؤوا جميعهم إليهم يجرون. حتى استطاعوا الهروب منهم وتشتيت أنظارهم عنهم عندما دخلوا إلى غرفةٍ يختبؤون بها فى صمت دامسٍ دون إحداثِ صوتٍ لأنفاسهم. وأنفاسهم تأخذ أنفاسها داخل الغرفة. وسكت المكان.. وصمتت الأجواءُ تمامًا من أى صوت. ومرت دقائق.. حتى سمعوا صوتَ أقدامٍ مشتتة كأنها تبحث عن شىء معين.. كأنها تبحث عن فريستها.. فيقترب صوتُ الأقدامِ أكثر فأكثر وتزداد عددًا.. حتى توقفت فجأة.. وهدأت.. ولم يُسمع صوتًا حتى صوت أطلال أنفاسهم لم يصعد.. وفجأة.. وفى هذا الصمت التام ودقات قلبهم تكاد تقفز من صدرهم قفزًا.. سمعوا صوتًا من الخارج يقول:

– «هل من أحدٍ هنا؟ (حامد).. (حسن)!».

– «عم (يحيى)!!».

فسمعهم وقال:

– «ها قد وجدتكما!».

فنهضا يفتحان الباب ويأخذان أنفاسهم التى كادت أن تنقطع نهائيًا. فقال (حسن) وأنفاسُه مشتتة:

– «أين كنت يا عـ..!».

وقبل أن يُكمل سؤاله.. رأى فتاتًا واقفةً تنظر إليه أنْسته سؤاله بل وأنسته ما كان قد مر به فى يومه. ولم تهدأ دقات قلبه هذه التى تتراكض سريعًا.. بل زادت اضطرابًا من جمالِ ما رأى! ولا يزالون ينظرون إلى أنفسهم حتى قاطعهم العم (يحيى) ليعرفهم بعضهم ببعض:

– «هذه (ليان حفيظ)... هذا (حامد).. وهذا (حسن)».

* * *

جلسات وناسة

ساروا أربعتهم متجهين إلى بيت عم (يحيى). يتحدثون عن قريتهم وأوضاعهم فيها، وما سمعوه من هزة وقتئذ، وما رأوه من ضباب حال الجو السحيل البرودة والرياح وقتذاك. أخبرهم العم أنه قد رأى أولئك السفاحين متجهين نحوهم إلى المدينة، فخشى عليهم منهم، لذا فذهب إليهم، وأخبرهم أن يطيلا الجليس عنده حتى تهدأ الأمور. أخبرهم أيضًا أنه قد شهد ذلك الضباب وتلك الهزة. فقد بات مع أخيه والد (ليان) ببيتهم هو وابنه فى ذلك اليوم. وقد كانوا ساهرين جميعهم

وقت منتصف الليل –كدأب ليلة (حامد) و(حسن) و(زكريا)– يتحدثون أربعتهم وهم يحتسون القهوة. فما أجمل فى الدنيا من احتسائك فنجال قهوة لذيذ مع شخصٍ تحبه يسامر لياليك فتُدفآن فى ليلةٍ باردةٍ من ليالى الشتاء! ويتحاكون أربعتهم حتى وصلوا بيت العم (يحيى).

وضعا حقيبتهما وغسلا وجههما وشربا مياهً من القلة أراحت جسدهما من الداخل بعض الشىء. ثم خرجا يجلسان أمام البيت. و(ليان) والعم (يحيى) بالداخل يعدان طعامًا يتناولونه جميعهم بعد ما عاصروه من أحداثٍ شاقة.

خرج العم يناديهم ليدخلوا بعد محاولاتٍ من العناد كفطرة الإنسان فى الرفض رغم الحاجة. فجلسوا مستربعين أربعتهم يتناولون الغداء وقد بان فى وجه العم (يحيى) ملامح حزنه الشديد على فراقه لولده. وقد طال حزنه كثيرًا فى هذه الفترة وفتر قلبه حتى كان بإمكان (حامد) و(حسن) أن يخففا عنه ما استطاعا فى أثناء جلساتهم التى طيلت فى رحلتهم المجهولة.

تناولوا طعامهم الذى تملؤه البركة، المكوّن من الجبن القريش والبطاطس المُحمَّرة والبيض المسلوق الطازج والباذنجان المشوى والفول الساخن الذى يعلوه زيت وأرغفة خبزٍ كثيرة وأربعة أكوابٍ من اللبن الدافئ يحلّون به مع فطير.

تناول (حسن) وحده خمسة أرغفة. فأما العم و(حامد) فلم يزدوا عن ثلاثة. وأما (ليان) فلم تجد أمامها ما يملأ معدتها غير رغيفين –بالعافية– التى حظت بهما. فقالت فى دخيلتها على ضيوفها «ما هذه الطفاسة؟!»، بظُلمها لـ(حامد) الذى زاد عليها رغيفًا واحدًا فقط. فمن أنفد الخبز غير (حسن) الذى فى البداية كان يرفض الدخول من باب الحرج.

و(حسن) قد راق له الطعام كثيرًا، فقد همَّ على الطعام وكأنه لم يأكل منذ أيام. يأكل اللقمةَ فتعقبها لقمةٌ أخرى بلا فاصل. وهو منهمٌّ على الطعام لا يفعل سوى أنه يأكل وينظر إلى (ليان) وفمه ملىء بالطعام، ولا يعطى انتباهًا لكلام (حامد) والعم. تناول خمسة أرغفة ونصف طبق الجبن وبيضتان من

ستة، وكثير من البطاطس حتى أن (ليان) التى كانت وحدها تراقبه لاحظت فجاعته فى الطعام ولقبته فى سرها بـ«المفجوع».

كانوا يأكلون ويتحدثون فى أشياءَ كثيرة متباينة. بينما كانت عينان (حسن) ترمقان إلى (ليان) وجمالها. كان يراوغ النظر إليها حتى لا يراه أحد. ولكن.. من منا باستطاعته إخفاء شعور عينيه؟! فعين المحب فضّاحة وإن حاول لها إخفاءَ! وإن أغلب مشاعرنا تعكسها أعيننا كأنها مرآةٌ للقلب! فإذ لاحظت نظراته لها وقد لاحظ هو الآخر ذلك حتى أنه فى مرةٍ نظر إليها فوجدها تنظر إليه فنظر كليهما إلى الأسفل سريعًا من الخجل.

وكان (حامد) والعم يتحدثون، فدخل بينهما (حسن) لحظة صمتهم ناظرًا إلى (ليان) ويدرى أنها التى أعدت الطعام، قائلًا:

– «هذا الطعام شهى جدًا! سَلُمَت يداك الجميلتان يا عم (يحيى)!».

ابتلع العم قطمته ثم قال:

– «لست أنا من طبخ.. إنها (ليان) من أعدت كل هذا».

شعرت (ليان) بالخجل وأحنَت رأسها مهدئة مضغتها. وصمت (حسن) انبهارًا وهو ينظر إليها حتى قال فى سره «ليان الجميلة!».

وأعقب عاليًا:

– «هذا أجملُ طعامٍ تناولته منذ أن خرجنا من ديارنا!».

فاحمَرّ وجه (ليان) وكانت خجولةً جدًا مما يقال عنها أمامها. ولاحظ (حسن) احمرار وجهها. فإذ انتهى من طعامه وقام –بعد أن أنفد نصفه لمعدته– قال له العم (يحيى):

– «مطرح ما يسرى يمرى».

شكره وحَمِدَ الله الذى يسمع من حمده ويزيدهم من نعمه، فهو يسمع كل شىء، ويرى كل شىء. وقام يغسل يديه بإسكاب دلو الماء برفق عليهما. ثم خرج من البيت وفرش

حصيرًا يجلس عليها أمام البيت بعد أن أخفى فى يده بيضةً انتشلها دون أن يراه أحد. حتى يكون بذلك المجموع ثلاث بيضات له، وواحدة فقط لكل واحدٍ من البقية.

فرغ الباقون من الطعام، وخرج (حامد) يجلس مع (حسن). وبالخارج أريكةٌ من القش أمامها الحصير. جلسوا عليها مسندين ظهرهما على الأريكة. و(حسن) يأكل البيضة على مهله حتى يستمتع بها. وفى أثناء ما كانوا يتحدثون.. انتفض (حسن) من صوت إوزةٍ صاحت بصوتها الصخب يمينه كاد يقطع الخلف. وهو يخاف الإوز كثيرًا لكنه لم يعطِ خِوانة لذلك إطلاقًا. ولأن اللحظات الجميلة كثيرًا ما تنقطع –كما نعلم– مثلما حدث، ولسوء حظه، أُفلِتت من يده البيضة وهو يجرى بعيدًا عنها لكى لا تعضه عندما بدأت تركض ورائه. فأبعدها (حامد) وهو غارقًا فى الضحك عليه. والتقط (حسن) بيضته حزينًا عليها. لكن دمه المصرى مثلنا قرر أن يغسلها بالماء ويعاود أكلها من جديد وكأن شيئًا لم يحدث.

وعند دخوله البيت، قابله العم (يحيى) حينما كان يخرج إليهم. فأخبره (حسن) أنه سيغسل يديه ويعود. وخرج العم وجلس بجانب (حامد)، بينما (حسن) بالداخل يرى (ليان) جالسةً تعد لهم قهوة.

فمشى إليها مِشيةَ «إسلوو موشن» مثلما يمشى دومًا فى بلدته. وكان رأسه تشاغره كلماتٌ كثيرة تشاغر كل شاب مصرى. لكن لم ينطق لسانه بغير:

– «هل لى بدلو الماء؟».

فأجابت بكلمةٍ ونصف:

– « إنه هناك».

فى الزاوية المقابلة لزاويتها. ولم يسيطر على قدميه التى سحبته إلى الدلو بخجلٍ ودون كلام. وخابت طموحاته فى استمالتها وخلق أول حديثٍ لهما. غسل البيضةَ جيدًا، وشرب من القلة ذات المذاق عذب. والتهم البيضة فى فمه دفعةً واحدة ثم خرج. و(ليان) كانت تنظر إليه تشاهده وهو يحاول

مضغ البيضة بسرعة قبل خروجه فى وضعٍ يبوءُ بالضحك والسخرية.

خرج وجلس معهم وكان فهمه لا يزال ممتلئًا بصفار البيض الممزوج بلعابه. نظر إليه العم (يحيى) وابتسم مُهَمهِمًا لمّا رآه يمضغ سريعًا. وقال (حامد) فى سره «ما هذه الطفاسة يا رجل!». وعاودوا الحديث.

يقول العم (يحيى):

– «أخبرونى إذًا، كيف كان طريقكم إلى هنا؟».

(حسن) سريعًا فور انتهى بعض الشىء من تنظيف فمه:

– «شاقٌ جدًا كدنا نموت».

– «يا ستّار!».

فأعقب (حامد) يحكى له شدائد ما واجهوه فى الطريق، وحادث الخيمة، والعاصفة والسفاحين قبل مجيئه إليهم. وحكى له العم عن أولئك الناس. قائلًا:

– «إنهم أناسٌ من أتباع المستعمر، زعيمهم رجلٌ كفيفٌ يريد أن يزوّج (ليان) لابنه غصبًا. وهو ولدٌ طائشٌ مدلل بلا أخلاق لا يملك سوى ثروة أبيه التى أتى بها من ولائه لبريطانيا. عندما جندت كثيرًا من المصريين وقت الحرب العالمية الثانية عندما شنت إيطاليا هجومًا علينا. وكما ترى.. راحت ضحية ذلك الكثير من أهالينا، فلم يبقَ سوى القليل.

كانت أراضى المدينة ثرية زراعة وفِلاحة. فأتوا هؤلاء إليها ينهبون أراضيها. ومنذ وقتها وهم اتخذوها ملاذًا لهم ولثروتهم فى الحربين الأولى والثانية. فهجرها أهلها خوفًا بالفجر وهم نيام. فبعضهم ذهب إلى قُرًى فى الشرق، وبعضهم إلى قرًى بالشمال والجنوب. واتخذوا لهذه القرى أسماء. وهكذا ظهرت هذه القرى حول (السنبلاوين).

وأتيت أنا و(فارس) و(جَمَلات) زوجتى –الله يرحمهما– إلى هنا «طوخ». وذهب (حفيظ) و(ليان) وزوجته –رحمها الله– إلى الشمال «نوب»، ويُبَيَّن أنكما مررتما بها فى طريقكما فوجدتموه هناك».

انتهت (ليان) من إعداد القهوة وأتت بأربعة فناجل لكل منهم وخرجت معهم بالخارج. وجاءت ساعة الغروب، وتدللت السماءُ بفستانِها الأزرقَ الدافئِ المزين بخط غروب أشعتها ذات الحمرة المريحة للعين. وانسكب دلوُ النهارِ وتجدد المساءُ بصَداهِ المظلم.

خرجت عليهم بالصنية المبروكة التى تُشبع معدة الآكلين، فوضعتها أمامهم وجلست بجانب عمها. ووزع عليهم فناجيلهم يشربون. وواصل حديثه لهم:

– «(ليان) ابنة أخى تأتى إلىّ كل يومٍ بعربة حصانها هذه التى هناك. ويذهب والدها بعيدًا عن البيت كل يوم بحثًا عما يرعى به قطيعه. فتأتى بأشياء وطعام لى عند الحاجة كى أعده بالليل. وتجلس معى حتى يأتى والدها ويأخذها معه».

وبدأت تتكلم للمرة الأولى لها ويخرج صوتها، قائلةً:

– «ما رأيكم بقهوتى؟».

فأقدَم (حسن) بالقول مازحًا:

– «إنها أفضل بكثير من التى يعدها (زكريا) صديقى!».

ضحكوا ثلاثتهم بينما (حامد) منهمرٌ فى الضحكِ حتى ترك فنجاله سريعًا خيفة أن يسكبه بضحكه. بينما وقع (حسن) فى حب ضحكة (ليان) التى جذبته إليها جذب المغناطيس كأنه لم يسمع صوتًا فى جلستهم غير صوت ضحكتها!

ظلوا يتحدثون فى مواضيع بسيطة تناسب أيامهم. ولحُسن حظ (حسن).. للمرة الأولى فى حياته.. استطاع أن يخلق حديثه مع (ليان)! إذ وجد العم و(حامد) منشغلان فى موضوعٍ خاصٍ بالتجارة، وهو و(ليان) لا يفعلان سوى أنهما يستمعان. فقال لها وهو يبتلع ريقه:

– «(ليان)!».

ثم حاول أن يتمالك كلماته المضطربة وفركة يديه، وقال السؤال الذى لا تتجنبه محادثةٌ عربية:

– «كيف حالك؟».

فقالت فى نبرةٍ رقيقة مثلها، بطبيعة الحال:

– «بخير، وأنت؟».

فسعِدَ كثيرًا باستجابتها وقال:

– «بخير جدًا! كنت أريد أن أسألكِ سؤالاً.. أتحبين القراءة؟».

– «جدًا، أتعلم.. قد يخال لك غريبًا.. لم أحظى بتعليم المرأة، ولكننى تعلمت القراءة على يد ابن عمى (فارس) رحمه الله. وأنا محتفظةٌ بكتيباتٍ كثيرة كان يأتى لى بها».

– «آه.. دعيكِ من (فارس).. ولكن، هذا عظيم! أن تحبى القراءة وليس لك رابطٌ بها غير هذا! ولكن.. أتعلمين ما قد يكون غريبًا إليك؟».

هزت رأسها لليمين رافعةً حاجبيها فى حركةٍ راقت له كثيرًا، ثم قال:

– «أريد القول إننى كاتبٌ ولى مؤلفاتٌ عدة.. لكننى لا أهوى القراءة إلى ذلك الحد، فإننى أمِلُّ منها! أقرأ فقط عند الحاجة إلى التثقّف بأمرٍ ما، وليس للترفيه».

– «حقًا! وكيف ذلك؟».

فرقص قلبه من شدة الفرح على فوزه باستمالتها له، ولرغبتها فى قراءة كتاباته التى لم يكن يومًا يتصور أن يراها أحد! فأخبرها أن تنتظر قليلًا عندما دخل يحضر أوراقه بالحقيبة. ولحُسن حظه مجددًا أنها حقيبته هو التى لم تُفقد فى العاصفة، وإلا لَفسدت عليه لحظته. وأتى إليها – مُنشَكِحًا– وأراها الورقات، وأخذها فى جانبٍ بعيدٍ عن (حامد) والعم، وقال لها:

– «غُطّى بخيالك معها وأخبرينى برأيك!».

و(ليان) تتلامسها وتتفقدها وتنظر إليها فى تلهفٍ ودهشة، وأخذت تقرأ فيها. وبعد قليل.. أخذت ملامحها تتغير! فما رأته من حزنٍ شديدٍ فى كتاباته كفيلٌ أن يغير نفسيّة الإنسان! فكيف فى زماننا إذًا ينشر الناسُ أحزانًا على مواقع التواصل الاجتماعية!

قالت له (ليان):

– «من أين لك بكل ذلك البؤس؟».

– «هه.. هذا ليس شيئًا عما يدور بداخلى».

– «وما سبب هذا كله إذًا؟».

صمت قليلًا ثم قال وهو ينظر بعيدًا:

– «الدنيا يا (ليان) الدنيا! .. لم أرَ سرورًا قط فى حياتى».

– «لقد أشفقت قلبى عليك! احكِ لى إن أردت حكايةً.. فإننى أسمعك.. وإن لم تُرِد الآن.. فإننى منتظرة إياك!».

– «أتعلمين.. لم أسمع جملةً جميلةً مثل هذه من قبل! وهذا ما يجعلنى مرتبكٌ وأنا معك!».

فأراد أن يتوّه عما قاله بضحكة، لكن (ليان) لم تمر عليها جملته عاديةً، فلم تضحك، فقط ابتسمت لترضيَه. ثم سألها:

– «(ليان).. هل يعجبك المكان هنا؟».

– «بيت عمى! أجل المكان رائعٌ جدًا هنا».

وبدأ (حسن) مهمَّة التلميح إليها قائلًا:

– «أوَلا تريدين أن ترىْن مكانًا.. آخر؟».

– «مثل ماذا؟»

– «مثلًا.. مكانٌ بعيد.. (ميت غراب) مثلًا!».

– «أوَليست هذه بلدتك؟ أخبرنى بذلك عمى (يحيى)».

– «عليكِ نور!».

– «إممم.. وكيف هى إذًا؟».

– «ما رأيك أن تأتى إليها بنفسك؟».

– «وكيف؟.. فلا يذهب والدى ولا عمى إلى هناك؟».

فظل ينظر إليها طويلًا دون كلام، فقالت له:

– «ما بك يا فتى؟».

وبعد محاولته أن يجمع كلماته ويخرج ما بداخله للمرة الأولى فى حياته، قال لها وقلبه مرتبكٌ جدًا:

– «(ليان).. أنتِ جميلةٌ جدًا!».

ولكن.. كما نعلم حظه هو وأمثاله –ومنهم أنا–.. فإن الدنيا لا تسلك محاسنها لأحدٍ دائمًا. فإذا أعطتك القليل.. أخذت أكثر مما أعطتك إياه! فما كان ردُّ (ليان) غيرَ أن قلبها دقَّ كثيرًا وارتبك أكثر مما دق. ولم تحن فرصة ردها عليه – إن كانت ستجيب– حتى خُرّبت لحظة (حسن)، عندما أقبل والدها عليهم من بعيد فوق فرسه ومعه كلبان. فنهض (حسن)

فى الحال يجلس خلف (حامد) والعم فوق الأريكة خوفًا من الكلاب. ولاحظت ذلك (ليان) وضحكت بصوتٍ خافت، ورآها (حسن) وسَعِد كثيرًا بذلك.

صلوا جميعهم العشاء، وجلس والدها معهم يتحادثون ساعةً أخرى، ثم غادرت (ليان) ووالدها.

أخبرهم العم (يحيى) بأنه سوف يخلد للنوم، ويسألهم إن كانوا سينامون فيقولون إنهم سيسهرون قليلًا. وكعادةِ (حامد) و(حسن) فى قريتهم؛ يسهران حتى ينغمسُ اليومُ فى الليلِ، ويدخلُ الليلُ فى جفونِ الظلام. وما أصفى الآن من جلستهم الهادئة فى ليلةِ صفاءٍ لا يشاردُها شاردٌ ولا همُّ!

يقول (حامد):

– «ألن نرحل من هنا؟».

يرد (حسن):

– «وإلى أين سنذهب؟».

– «أمعتوهٌ أنت؟ وإلى أين غير ديارنا؟!».

– «طيب، وكيف سنذهب فى هذه الأجواء الرملية؟!».

(حامد) بهدوء:

– «وهذا هو سؤالى.. متى؟».

(حسن) ببرود:

– «ليس الآن.. دع سؤالك ينام».

(حامد) بعد تفكيرٍ لبرهة:

– «ما رأيك بصباح غدٍ؟ ربما تهدأ العواصف صباحًا!».

فرد عليه بلهجةٍ رافضة:

– «لا أدرى ولكنى لا أريد الرحيل الآن!».

ثم نظر إلى الأرض وكأنما يفكر فى شىء. فنظر إليه (حامد) وقال:

– «ماذا؟! ولمَ لا تريد الرحيل إذًا؟! أهذا بيتنا أو نعمل هنا؟ لا فائدة فى البقاء!».

فرد (حسن):

– «دعها لله غدًا نرى حالَ الجو إن يسمح».

– «طيب».

فإنّ (حسن) لا يريد أن يغادر دون أن يرى (ليان) مرةً أخرى على الأقل أو عساه يفوز بها!

* * *

سهروا ساعةً والهواء الشديد يداعبهم ويلاطف أغشية وجوههم. ورغم شدة الهواء، إلا أنه كان خفيفًا منعشًا بملامسته خياشيمَ وجوههم. كان هواءً رطبًا يريح عظم موجوعَ الفِقار. كان مثل الرعشة التى تنتابك عند سماعك أغنيةٍ تحبها تذكرك بماضٍ لك. كان هواءً يضع فى النفس مزاق ماء القلة البارد. كان هواءً يريح الأبدان ويحفُّ المرءَ بالراحة البدنية التى لا نجدها إلا قليلًا.

طاف كلٌّ منهما فى عوالم من الخيال خاصةً به، حتى نال الهواءُ منهما وشعرًا بالنعاس فى مكانهما. وأخذت السماء بسحبها الكثيفة مُنزِلةً أمطارها. فدخلا إلى البيت منهيان جلستهما آخذَين حصيرتهما. ثم غطّا فى نومٍ عميقٍ فى ليلةٍ عاصفة. وفرغت الأرضُ من أى ملامساتِ دوابٍ عليها، وصارت فارغةً لا يلامسها سوى الأمطار. والسماءُ تأتى ببرقها الذى يداعبه صوتُ رعدها. والجو هادئٌ تمامًا لا تسمعُ فيه غير صوت تساقطات الأمطار التى غزت الأرض.

وباتت الأجواء فى فصل الشتاء الذى ليت كلُّ فصولُ العام شتاء. لكل امرئٍ ما له من مكرهاته لهذا الفصل. فمن يعبس له لبرودته الشديدة وشوارعه الملطخة بالوحل، أو لتوجع عظامه، أو لنزلات البرد. لكن هذا الفصل على الأقل لا تشوبه موجات العرق ونيران النهار.

وهو الذى بهدوء النفوس. والذى يمتلئ بالعدس الأصفرِ وطين الحذاء، والبرتقالِ والبطاطا والكرنب واعتدال الماء. والتأمل تحت المطر والحضن الدافئ والاحتواء. والحمَّام الساخنِ والانتكاس تحت فراش السرير، واجتماعٌ دافئٌ أمام التلفاز لأهل الديار. وبرودة اليدين وبخار الفم الذى نتسابق من يُخرجُ أكبر كمية. الفصل الهادئ، الذى تجد فيه الناس منقبعين فى منازلهم حول الدفايات الكهربائية، والشوارع فارغة مبتلةٌ بالمياه. ولن يخوننا القول بالتذكِرة بأجوائه التى تحوم حول نفوس الناس وتحتضنهم ثيابهم الكثيفة.

وفى آخر اليوم، يفرّ إلى الفراش منقبعًا تحت بطانيتين مرتديًا الجوارب، يتدفأ من برودة أطرافه. فيدفأ وينام فى سكون لا نشعر به إلا فى الشتاء.

هذا الفصل الذى تجد فيه اليوم كله سكون وليل. وأعينٌ تبكى من حزن ذكراها بليالى الشتاء. وأعين أخرى تنام قرير العين فى حضن الذى سكنت إليه. الفصل الذى يستمتع به الناس أكثر بفنجال القهوة الدافئ مع صوت المطر الذى يشبه الكمان، والهدوء الشديد الذى يعم الجو، ورائحة الهواء المميزة التى يفوح بها فصل الشتاء.

* * *

فى ظهيرة اليوم التالى، استيقظ (حسن) ليجد أن لا أحد بالبيت غيره و(حامد)، والعم (يحيى) ليس بالبيت ولا بخارجه. فيغسل وجهه بإسكاب مياه القلة عليه فوجدها باردةً جدًا، فصاح بـ«يَح!». حتى توضأ بالمياه الباردة كليًّا وأكثر من الـ«يَحيَحة»، ثم صلى الصبح. بعدها خرج من البيت يتفقد غرفة المزرعة، فلم يجد الأغنام، والطيور يجدها فى الجهة المقابلة قرب الترعة. فعلم أن العم أخذ الأغنام وذهب لإطعامها. أخرج الحصير وجلس عليها منتظرًا إياه يعود. و(حامد) نائمٌ بالداخل. جلس مسندًا ظهره على أريكة القش وهو يتضوع جوعًا حتى مرور ساعة.

شمسُ اليومِ مختبئةٌ خلف السحب. والهواء شديدٌ باردٌ جدًا سحيلٌ ترتعش له الأبدان ويقشعر شعر الأيادى. راح (حسن) يتمشى حول المكان يتفقده وهو ملتفًّا برداءٍ كثيف من القطن. فأخذه التفكير بعيدًا جدًا عن البيت. وعلى مد بلوغ نظره يجد بضعةَ بيوت صغيرة، طولهم وعرضهم متساويين، لا يتخطان أربعة أمتار.

ذهب إلى أولهم فوجد بابه مغلقًا من الخارج. فقرر دقّهُ – وسوسةً– احتسابًا لوجود أحد. دق ثلاثًا فلم يجب أحد. فاستطاع فسخ الباب بعد محاولات. وبعدما دفعه لم ترى عيناه سوى الغبار الكثيف الذى اندفع إلى وجهه وملأ رئتاه. فاندفع (حسن) إلى الخارج وقد مُلِئ صدره منه، وانهَمّ يسعل كثيرًا كأنه يبصق ترابًا. ولما هدأت ذرات التراب المتطايرة.. فزع قلبه برؤية شخصٍ فى الداخل يقف ثابتًا ناظرًا إليه! يقف بلا حراك مثبتًا يديه على جانبيه. محدقًا إليه بعينين واسعتين دون رمشها فى منظر مخيف. ظلا ينظران إلى بعضهما فى ثباتٍ وقلب (حسن) يزيد دقاته. ثم تحرك نحوه ذلك الشخص.. وخرج له وقال:

– «شكرًا لأنك أنقذتنى!».

فقال (حسن) فى استغراب وقلبه يرتعب:

– «من أنت؟!».

– «أنا محبوسٌ هنا منذ وقتٍ طويل».

– «أشعر أننى رأيتك من قبل!».

– «لا تشغل بالك يا صديقى».

– «وكيف جئت إلى هنا؟!».

– «لا أدرى.. كنت نائمًا».

– «وما خط الدم هذا الذى على رقبتك؟ تشبه وكأنك تنزف!».

– «هذا مجرد خدشٍ صغير.. أسئلتك كثيرة».

فصمت (حسن) قليلًا، والشخص يحدق إليه مباشرةً بعينين واسعتين دون رمشها. فبلع (حسن) ريقه، وقال وقلبه يرتجف:

– «ولكن... كيف لم تتعفر من ذلك التراب كله؟!».

– «أنت تسأل كثيرًا».

ويفكر فى أمره.. وإذ يتذكر ذلك الفتى الذى رآه هو و(حامد) عند قدومهما. فيدرك أنه هو الفتى الذى رأوه يُذبح! وعندما انتهى من التفكير.. جاء ينظر إليه وراءه ليستعلم وهو قلق.. فما وجد أحدًا حوله! فراغٌ تامٌ يعم المكان.. ففزع قلبه.. وتحرك إلى داخل البيت بهدوءٍ تام يرى إن كان دخله.. فإذ يجد جثةً ملقاة على الأرض يملؤها الغبار، والدماء عليها جافة لونها لون التراب. إنها جثة ابن العم (يحيى)! جسده فى مكان.. ورأسه فى مكان. ففرّ (حسن) إلى الخارج من هَول ما رأى فازعًا تاركًا الباب مفتوحًا! حتى عاد إلى بيت العم (يحيى) يلاحق أنفاسه! فوجده جالسًا يتناول فطوره مع (حامد).

قال العم (يحيى):

– «ما لك يا (حسن)! لمَ تلاحق أنفاسك هكذا؟!».

وقال (حامد):

– «وأين كنت؟».

فرد وهو يهدئ من شدة نفَسه من الجرى:

– «لا شيء.. فقط ضللت الطريق. أريد كوبًا من المياه».

فضحك العم (يحيى) وقال:

– «على مهلك يا فتى! هيا اجلس معنا وكل».

قال (حسن) بعدما جلس:

– «لا، لست جائعًا».

– «حسنًا كيفما شئت».

* * *

استغرقوا فى الأكل وقتًا طويلًا، فـ(حامد) بطىء جدًا فى المضغ، والعم (يحيى) يتأمل فى السماء بعد كل قطمة وأخرى.

وقال لـ(حسن) وهو يمضغ الأكل فى وضعٍ مُزرٍ:

– «أَعِدّ لنا شايًا يا (حسن)».

فقام فى صمتٍ يعد لهم. وجلس وهو شارد البال تمامًا يفكر فى منظر الجثة والغبار اللذين رآهما. وشرد طويلًا حتى غلت المياه وهو فى غير استيعاب. وبعدما فرغ الآخرون من الطعام أخيرًا، دخل (حامد) بصحن الطعام فوضعه ولاحظ شرود (حسن). فذهب إليه يوقظه من غفلته حتى تفاجأ به (حسن).

فأخبره (حامد):

– «ما بك يا فتى؟».

فقال لمّا أفاق:

– «لا شيء الآن، سأخبرك لاحقًا».

صبّ الشاى وخرج واضعًا صحن الكوبين على الحصير. وجاع (حسن) بعدما جلسوا بقليل، فدخل وأحضر صحن الطعام مجددًا وجلس ليأكل معهم وهم يشربون.

يقول العم (يحيى):

– «أخبرانى إذًا، ماذا ستفعلان بعد أن تهدأ العاصفة؟».

رد (حامد):

– «وماذا سنفعل إذًا، سنغادر ونعود ديارنا».

فأعقبه (حسن) والطعام فى فمه:

– «خائبين .. !».

فرد عليه (حامد):

– «كانت التجارة معى مثل عجلةٍ لا تتوقف.. ومنذ أن أتيت معى جلبت لى النحس بل ولم نجد البلد نفسه! تبًا لنحسك يا فتى!».

فقال له:

– «وما لى أأنا الذى أتيت برمال الأرض وألقيتها عائمة فى الهواء؟ أم أننى الذى أخفيتُ البلاد؟!».

رد بقرف:

– «نننننن».

فضحك العم (يحيى) كثيرًا على مناقرتهما بعضهما. فنظر كلاهما إليه مبتسمان وقال وهو يواصل الضحك:

– «لم أضحك هكذا من بعيد!».

فازدادت ابتسامة (حسن) و(حامد) له. ثم أعقب:

– «اذهبا إذًا إلى الإسكندرية، أنت يا (حامد) سيزدهر حالك كثيرًا من التجارة فى الموانئ. وأنت يا (حسن) ربما تلتحق كاتبًا فى أى مكتب أجنبىٍّ هناك!».

فقال (حسن):

– «أشعر أننى لن أجد لى شيئًا هناك!».

قال له العم:

– «يا أحمق! لا تكن بائسًا متشائمًا هكذا! فوالله بقولتك هذه ستُصَعَّب عليك الأمورُ حقًّا لأنك مثبِّتٌ عقلك بهذا التفكير!».

صمت برهةً ثم أعقب:

– «وما تشاؤون.. إلا أن يشاء الله. وإليه يُرجع الأمرُ كله فاعبده وتوكل عليه. فوض أمرك إلى الله، وتوكل عليه باحثًا عن رزقك».

ثم قال له (حامد):

– «إنه كسولٌ جدًا».

فقال (حسن):

– «أتذكر حينما قلت لك ذلك لأول مرة؟! ها أنا ذا تحركت كما أخبرتنى.. ماذا حدث؟ وكأنها نهاية العالم!».

وفى أثناء ما كانوا يتحدثون، رأى (حسن) (ليان) آتيةً من بعيد. فظل يركز بعينيه عليها حتى اقتربت بضعة مترات ورأوها. ثم نزلت من فوق العربة، وأنزلت من على رأسها حلّةً بها طعامٌ للغداء. و(حسن) يتمعن النظر إليها فى إعجاب. تلقى السلام عليهم، وتنظر إليه، حتى أفقدته تركيزه تمامًا وأخذ ريقه. فدخل معها العم (يحيى) ليضعوا الأطباق فى مكانها. و(حسن) لا يزال يتأمل بها وبجمالها الخلاب.

حتى قاطعه (حامد) وقال:

– «قل لى صحيح، من أين كنت قادمًا ونحن نأكل وكنت تشهق وبدت ملامحك بهذا الشكل المخيف؟».

لكن (حسن) لم يسمع ما قاله، فإن المرءَ إذا دخل فى دوامةِ تفكيره تنغلق عليه أبوابَ باقى الحواسِ.

فصاح (حامد):

– «يا هذا!».

وبعد أن رجع (حسن) إلى الواقع السخيف قال له:

– «ماذا تريد؟!».

فعاود سؤاله. فقال له:

– «أتوقظنى مما كنت عليه لأخبرك عن جثة؟! يا أخى تبًا لك!!».

– «جثة!! أىُّ جثة؟!».

– «اللهم صبرنى يا رب!».

– «انطق! عن أىِّ جثةٍ تتكلم، وأين هى، وكيف وجدتها، وأين؟!».

– «كفاااا!».

ثم اقترب بجسده منه خافضًا صوته قائلًا:

– «جثة ابن العم (يحيى)!».

فبحلق (حامد) موسعًا عينيه. وقبل أن يتفوّه بكلمة، خرج عليهما العم (يحيى) و(ليان). فنسى (حسن) ما كان يخبر (حامد) به فور رؤيته إياها. ظلوا يتحدثون.. و(حسن) يوجه كثيرًا من كلامه إلى (ليان) متمعنًا النظر إلى عينيها وشفتاها حينًا، وتلاحظ ذلك فتخجل، وحينًا آخر عندما تنظر إلى الآخرين.

ومرت بضعة دقائق تفكيرٍ لعقل (حسن)، يحاول أن يجد طريقةً ليفتح حديثًا جديدًا مع (ليان) مستكملًا خطته فى استمالتها ومغازلتها. فقام وأحضر أوراقه من جديد، فليس من شيءٍ يقتحم به المرءُ قلب الأنثى غير ما يهواه قلبها! فناداها تتمايل قليلًا نحوه ليجلسا معًا فى ركنٍ ويتحادثان.

قالت له (ليان) فى مزح لطيف:

– «أوه، أوراقك مرةً أخرى! مرحبًا بالأحزان!».

فضحك وقال:

– «أجل، لم تكملى بقيتها».

– «أرنى إذًا، آتى لى بأحزن ما عندك!».

فضحكا ضحكةً من القلب، إذ كانت أول مرةٍ يضحك فيها من قلبه، وهذه المرة كانت مع (ليان). فقال لها بصوتٍ خافضٍ ما كان يرمق إليه وراء كل ذلك:

– «ضحكتك جميلة!».

فخجلت (ليان) جدًا وصمتت وتغيرت ملامح وجهها إلى الوضع العادى مما سمعته بأذنيها. ثم أعقب:

– «أتعلمين، هذه أول مرةٍ أضحك فيها من قلبى! ربما السر فى اسمك.. لَيان.. أى ليونة الحياة ومرونتها».

ثم تظهر معالم الصداقةِ الصادقةِ عندما سمعت أذنان (حامد) ما قاله (حسن) عندما كان يحادثه العم (يحيى)، فحاول أن يدارىَ عنه بأنه تلى على كلام العم بصوتٍ عالٍ بجملةٍ مثل «بالضبط والله، صحيح»، ليتمكن (حسن) من متابعة كلامه:

– «أتعلمين يا (ليان).. عندما كنت أحادثك لأول مرة، كنت أختلق بيننا الكلامَ حتى لا ينتهى. كنت قبلك طبيعيًا أنام باكرًا، لكنى الآن لم أعد أعتد النوم مثل سابق أيامى دون أن أفكر بكِ! وإن كلَّ ثانيةٍ تمر علىّ أنتظرك تأتين انتظار المسافر أعوامًا للعودة إلى دياره!».

وتزيد (ليان) فى خجلها لا تدرى أى قولٍ تقول، فيعقب:

– «أنتِ جميلةٌ جدًا يا (ليان)!».

حتى أتت نهايةَ خجلها بغيرِ قولٍ تقوله بأن راوغت عن الحديثِ قائلةً له:

– «شكرًا على كتاباتك الجميلة».

ثم وجّهت حديثها لعمها، قائلة:

– «هل أجهّز الغداء الآن يا عمى؟».

وبالتأكيد سيجيب بـ«كلّا»، لأن ذلك ليس موعده. واعتدلت فى جلستها مضمنةً انتباهها لباقى الجالسين، مُفسِدةً هى الأخرى أجمل لحظات (حسن) التى لا تتكرر إلا قليلًا!

* * *

جاء المغرب.. وجاء والدها، وصلوا المغرب جماعة. بعدها قامت تعد الطعام لهم جميعًا. فأعدته وخرجت ليتناولوا، وكان (حسن) يائسًا من وجود أبيها معهم. فقد كان يخطط لأنْ يتحدث معها كثيرًا، ويصنع لها لقمتها ويعطيها لها –من باب الرومانتيكية– لكن خابت آماله وتناول فى التزامٍ تام.

وبعد أن انتهوا من طعامهم، وغسلوا أيديهم، وشربوا شايهم، انتظروا العَشاء كالمعتاد يصلونها جماعة ثم ترحل (ليان). وجلس (حامد) و(حسن) كعادتهما ودخل العم (يحيى) لينام.

فيقول (حسن) لـ(حامد):

– «أتعلم، (ليان) تعجبنى كثيرًا، أريد الزواج بها وتأتى معى إلى ديارنا».

ضحك (حامد) من كلامه، وقال له:

– «أعرف يا (مفضوح)!».

– «مفضوح!!».

وضحك مجددًا وقال:

– «سمعتك وأنت تغازلها، وكاد عمها يسمعك أيضًا وتكون نهايتك لولا أننى علَيت صوتى وراوغت أذنيه».

– «أوه! .. لقد أنقذتنى يا فتى».

صمت (حامد) قليلًا ثم قال:

– «أتريد أن تأخذها من والدها هذا وعمها الذى ترعاه وتأتى بها إلى (ميت غراب)؟! وهل سيسمحون لك إذًا بذلك؟!».

– «لا يهم.. كل ما أريده هو ألا أرى سواها! فسوف أجد عملًا ولن أتفرغ لكى أرى حسرتى على حالىَ هذا! ولمَ سيرفضون إذًا؟».

– «ذكرتنى.. وكيف ستنفق عليها وأنت بلا عمل أيها الكاتب (حسن)؟».

– «سأتحول إلى الرعى مثلها، أو إلى التجارة معك».

– «وتترك الكتابة؟!».

– «وهل ترانى أعمل بالكتابة؟! إن آخرَ مقالةٍ أذكرها كتبتها بالجرنال منذ عام! .. ١٩٤٥ يا (حامد)! منذ انتهاء الحرب!».

فقال له (حامد) لامًّا:

– «أجل وقعدتَ مكانك. أفتراكَ تدرىَ بالأيام الحِسانِ وأنت فيها؟! أم أنك تروق لكسلك حتى يأتيَنّك الدهرُ بنوائِبِهِ فتدرك أن حسانَهُ قد أتت عليك وولّت؟!».

– «لا تحدثنى هكذا! وهل قصّرتُ فى شىء؟!».

– «أجل! لا تفعل سوى أنك تقعد محزونًا كيف النساء! إنك أن تطير فوق السحاب بذراعيك لأسهل لك من أن تقنع فتاتًا بشىءٍ لا تفهمه أو تقتنع به».

ظلوا صامتين حتى كسر (حامد) قفل الصمت وقال:

– «هل سنبقى هنا كل هذه المدة ونأكل ونشرب مما نهّل الله له؟! بل حتى إن الطعام من عند (ليان) ووالدها!».

رد (حسن):

– «وماذا عسانا نفعل إذًا؟! أنغادر فى هذه الأجواء وكلٌّ منا يتطاير ناحية الشرق والغرب؟! قد رأيت ما واجهناه فى قدومنا إلى هنا. لن نعود إلى ديارنا سالمين!».

فقال (حامد) موبّخًا لكلامه بلهجةٍ ساخرة:

– «حسنًا، دعنا إذًا مقيمين هنا حتى ينتهى الشتاء وينتهى معه مخزون هؤلاء الناس من الطعام فيشتكون!».

– «الطعام رزقٌ من عند الله! ولا أحدَ منهم جميعًا عانى من شيءٍ أو حتى ظهر على وجهه ملامح عدم الرضا!».

– «أأنت معتوه؟! وهل سيقول لك أحدهم إنه سئم؟! هل سيفصح أو يبيّن لك بشيء؟! أم أنك سوف تنتظرهم حتى يفعلون ذلك؟!».

فرد (حسن) منهيًا الحوار:

– «(حامد)! الناسُ مرحِّبون بذلك، والرجل مستمتعٌ بإقامتنا معه فإنها تؤنسه! أنتركه هنا وحيدًا ولم يمر على وفاة ابنه الوحيد المؤنس له أسبوع؟!».

فقال وهو مضيقًا عينيه إلى النصف:

– «إممم.. أنا أدرى لما لا تريد الرحيل!».

فصمتا برهةً وقال (حسن):

– «سنرحل عندما تهدأ الأجواء، ويعم السكون خلايا الهواء التى تطاير توازن السائر».

ثم جلسوا صامتين عدة دقائق حتى خرج العم لهم صائحًا:

– «أنتما يا تائهان! ألن تخلدوا إلى نومكم فى ليلتكم هذه؟!».

رد (حامد):

– «بلى يا عم (يحيى).. سننام الآن».

دخل (حامد) لينام بالداخل وقد أتى عليه النوم كالبَهيمِ الذى لا يأتى على الكثيرين، فيدخلون سابعَ نومةٍ فور وضعهم رأسهم على الوسادة! هؤلاء الناس قليلون حقًّا ليتنى منهم! فإننى أضع رأسى ناوٍ النومَ فأنام بعد مرور ساعتين ونصف خالصين فى التفكير وتضارب الأفكار بعضها! وظل (حسن) مستلقيًا أرضًا فى مكانه، فأخرج أوراقًا وقلمًا وأخذ يكتب فى مذكراته.

إقامةٌ تطول

ظل (حامد) و(حسن) مقيمين فى ضيافة العم (يحيى) أسبوعين آخرين. فالطقس مشتت عاصفٌ تتطاير به الرمال والأشياء مسافات بعيدة. و كانت الأمطارُ شديدةً تجعل الأقدام تغرز فى طين الأرض. وبرودة الجو تُدمع العينين!

لذا لم تكن لهم أية فرصة للمغادرة. وقد اعتادا كثيرًا على العم (يحيى) حتى صار يناديهما بالتائهَين. وكانت أيامًا جميلة بالنسبة لـ(حسن)، فقد كانت (ليان) تأتى ويراها كل يوم ويتحدثان معًا ويضحكها، وازدادت فرصة قربه إليها.

ومن معالم تقرب (حسن) إلى (ليان)، أنه فى ذاتِ ظهيرةِ يومٍ وقت ذهاب (ليان) ووالدها إليهم، فرغوا من تناول الطعام، وقد كان «أرز معمر» أعدته يدان (ليان) الرقيقتان. راحت تغسل الأطباق وتغنى، وقد كان (حسن) متسلقًا شجرة جالسًا على غصنها. ظل يشاهدها ويتمعن النظر فى ملامحها الجميلة وهى تغسل الأطباق. وسقطت حلة على الأرض فاستغلها، وهبط من فوق الشجرة على حجة مساعدتها.

– «صوتك جميلٌ جدًا».

ففزعت بشدة، وقالت:

– «من أين جئت؟».

– «كنت هنا. عنكِ أنتِ، دعينى أساعدك».

– «أتستطيع غسل المواعين؟».

– «بالطبع، أنا رجل بيت بارع كثيرًا، سأعجبك فى ذلك».

– «مذهل، اغسل هذه الأطباق كلها إذًا».

وقفت تتفرج عليه، وأُعجبت بتطوعه وقدرته السريعة على غسل الأطباق. وقالت:

– «وماذا يمكنك أن تطبخ؟».

فقال وهما ينظران إلى بعضهما:

– «أشياء كثيرة.. أعد الشاى اللذيذ، والقهوة والعصير، والسلطة والأرز والبطاطس والفول والفطير».

– «إممم يا لبراعتك».

ولما انتهى، تشاركا حمل الأطباق وغادرا. وبعد نصف ساعة، ذهبوا جميعهم إلى الأرض التى يزرعون فيها برسيمًا. كان الجو هادئًا ذا سماء رمادية تبوء بشتاء. وإن منظر الأرض الخضراء تحت السماء ذلك الجو النابع برائحةِ الهدوء كهدوء فجر ليلة خريف، والهواء المريح الذى يلامس أطراف الوجه، لَمنظرٌ يريح البدن وإن كان متحجرًا يصرخ ألمًا. فيتمشى (حسن) و(ليان) وسط المحصول الأخضر. وتبدأ بينهما محادثة جديدة.

– «راحةٌ نفسية لا أستشعرها إلا عندما آتى إلى هنا. فترتاح نفسى كثيرًا عندما ترى تلك المساحات الخضراء الواسعة».

– «قولى لى يا (ليان).. كيف تقضين يومك هنا وحيدةٌ هكذا بلا أصدقاءَ أو ناسٍ فى البلد؟».

– «إذا أردت إجابةً مختصرة.. فلا أعلم!».

– «وكيف؟».

– «حقًا لا أدرى كيف تمرُّ أيامى وأنا حتى لا أقوم بأشياءَ كثيرة. فإننى أذهب مع والدى نطعم الحيوان، ونذهب إلى عمى نحرث الأرض، ونساعده فى إطعام الحيوان، ونتناول معه الغداء ثم نرحل. ويمر يومٌ تلو الآخر ولا أشعر بأى ملل!».

– «تعلمين.. عندى فى بلدى ناسٌ كثيرون، وأصدقائى هناك، ونسهر بالليل على نار الوقود، وأشياء كثيرة».

فقالت بضحكةٍ خفيفة:

– «أتزلنى أم ماذا؟!».

فضحك، ووراء ذلك حاول قول جملةً محشورة فى فمه:

– «لا بالطبع.. أنا فقط.. لا شىء.. يمكنك أن تأتى معى إلى هناك وترين.. أقصد تأتى ووالدك زيارة أو شىء كهذا».

– «أعتقد أنها بعيدة، أليس كذلك؟ .. أتعلم.. نحن أيضًا كانوا ينوُون أن ننشئ عائلة هنا».

– «وكيف ذلك؟!».

– «كانوا ينوون أن يزوجونى لابن عمى (فارس)».

فصُدِم (حسن)، وما صدمه أكثر أنها تدرى بذلك. وقال:

– «وأنتِ.. أوَكنتِ تريدين ذلك؟».

– «وماذا سأفعل إذًا؟ ومن أتزوج ونحن فى هذا الانعزال؟ لكنه قد كان يصغرنى سنًّا. ربما نهجر المكان ونجدد العيش».

فقال فى دخيلته يحادث نفسه:

«إممم، ليست رغبتك إذًا.. إن غاب القط العب يا فأر.. لقد وجدتَ قطعة قشطة!».

ثم على بصوته:

– «وكم سنك إذًا يا (ليان)؟».

فقالت فى نبرة تفكير:

– «ولمَ تريد أن تعرف سنى؟».

فنظر إليها وقال:

– «استفسارٌ بسيط».

– «٢٠ عامًا».

ثم قال مُلمّحًا:

– «إممم.. صغيرة سنًا وشكلًا. أنا سيدتى.. ٢٤ عامًا. تعلمين.. يقولون تزوج باكرًا، تدُم طويلًا!».

– «وهل أنت متزوج؟».

– «لا، إنها معلومة يتداولونها فيما بينهم».

– «إممم، حسنًا».

– «أجل بالطبع».

صمتا الاثنان.. وبدأ عقل (حسن) يفكر ويتأمل فى حركةٍ جريئة وغْداء، فصار يخطط لشيءٍ ما.. فقال:

– «(ليان).. هل ستأتين إلينا غدًا؟».

– «أجل، كعادة يومى».

– «حسنًا، ولكن لا تتأخرى، سوف أنتظرك بشدة حتى تأتين، اتفقنا؟».

فضحكت وقالت:

– «تنتظرنى بشدة! أأنا مهمةٌ لهذه الدرجة؟».

– «مهمة جدًا جدًا.. إذا انتظر عقلى شيئًا ما فسيتوقف عن عمله حتى يلقاه».

– «حقًا! أوَلا تستطيع أن تفعل أى شىء إن كنت تنتظر شيئًا آخر؟».

– «لا.. وكيف يعيش امرئٍ وروحه بعيدة عنه؟».

فخجلت وتجمدت ملامحها وصمتت وسارت فى صمت. وفى أثناء ما كانوا يسيرون، انزلقت قدم (ليان)، وكادت تقع حتى أن لحقها (حسن) وأمسك بيدها، وأخذ يشدها رويدًا رويدًا حتى ينعم بلمسته ليديها. واعتدلت وسحبت يديها بسرعة فى خجل، وشكرته بابتسامة. ويكاد قلبه يخرج من أضلعه من جمال ونعومة ما لمس! ومن نجاح خطته الوغداء الذكية التى فعل بها ذلك عن قصد! إذ خطط أن يُمشيها فى طريق التراب الذى يسيران فيه، ولكن على حرفه الذى يحوى التواء فى منتصفه. وقال لها وهو يرجف:

– «أأقول لك شيئًا بصراحة؟».

وترد فى صوتٍ خافض، وهى تنظر إلى بعيد:

– «بالطبع تفضل».

ولا يزال يصمت حتى دقيقة، فقالت له:

– «تكلم!».

واستغل الفرصة.. وقال لها للمرة الثانية:

– «بصراحة... أنتِ جميلةٌ جدًا يا (ليان)!».

فتخجل كثيرًا بلا كلام، ويحمرُّ وجهها التى حجبته عنه للجهة الأخرى. ويستغل فرصته الأولى فى حياته دون أن يقاطعه أحد، ويقول:

– «منذ أن رأيتك وأنا لم أرَ جمالًا مثل هذا.. أتعلمين.. كنت أفكر بكِ طوال هذه الأيام! أتذكرين عندما كنت آكل وعلق الطعام فى فمى، فأسرعتِ إلىّ بكوب مياه؟».

فقالت والخجل يأويها:

– «لاحظت نظراتك لى طوال الجليس! ولم أدرى لمَ».

– «لم تدرى لمَ؟! لم أنسَ ذلك اليوم وشعورى بخوفك علىّ! .. أعلم أنك ربما فعلتِ ذلك فقط لأننى روحٌ أمامك وقد أموت.. لكنى اتخذتها على هذا الأمر».

وبدأت السماء تنقط قطرات مياه عليهم، وتزداد مطرًا.. فينظر إليها ووجهه تملؤه الابتسامة.. إذ يعيش أجواء الرومانسية التى نراها فى أفلام الأتراك وهم يرقصون بالليل تحت المطر والمكان فارغ تمامًا! وزادت الأمطار كثافتها، فيقول العم (يحيى):

– «هيا يا أولاد لنرحل!».

تحركا ذاهبَين إلى العربة وهو ينظر إلى (ليان). حتى وهم على العربة ينظر إليها، فتلاحظ ذلك، فيخجل ويحجب وجهه سريعًا ويعاود النظر مرةً أخرى. ويسيرون بالعربة فى الطريق إلى المنزل تحت المطر الشديد.

ولمّا رآها والمطر يهبط عليها بشدة كأنه يمطر ثلوجًا.. حنّ قلبه بطبيعة كل شابٍ تنتابه الشهامة فى موقف كهذا ويحب أن يظهر أمام فتاته «البطل الشجاع»، فيخلع ثوبه الكثيف الذى أحضره معه فى رحلته، ويعطيه لـ(ليان) لترتديه، ولتراه أشهم رجل فى الدنيا، ويقول فى دخيلته:

«ادخل لها من الاهتمام.. تدخل قلبها..
ادخل لها من قلبها.. تدخل بيتها».

فما أحبّما أحلام اليقظة لدى الشباب! فإننا نعيش بها، ولولاها لهلكنا.

شكرته ولبسته بعد رفضٍ. وينظر إليه (حامد) مضيقًا عينيه مبتسمًا تلك الابتسامة ذات الرسالة التى نعلمها تمام العلم. فيبستم له (حسن). وينظرون إلى الطريق. و(حسن) منغمسٌ فى تخيله وانغماسه فى عالمٍ آخر فيما حدث.

* * *

وفى اليوم نفسه عصرًا.. والجو لا يزال مغيمًا كأن الشمس فى عطلة، والغيوم تولت وظيفةً جديدة، وكان الهواء رطب شديد. وكان (حامد) و(حسن) أمام البيت صامتين. و(حسن) مستلقٍ يفكر فى أحداث ظهيرة اليوم.. متخيلًا لتلك الملامح التى لم تنجب مثلها بطنٌ من قبل.

يقطع الصموت (حامد) ويقول:

– «لـمَ أنـت نـائمٌ هكـذا؟ ادخـل ونـم بالـداخل إن كنـت ستنام».

فقال (حسن) بعدما تثائب:

– «لا أنا مستلقٍ قليلًا».

– «أتعلم أين عم (يحيى)؟».

– «ربما ذهب يجلس مع أغنامه.. تعلم.. فهو يحبهم».

– «صحيح! قل لى قبل أن يأتى.. أين وجدت جثة ابنه؟!»

فتثاءب (حسن) مجددًا تثاؤبًا طويلًا حتى قال له (حامد):

– «اخلص!».

– «لن تصدق ما رأيت! فى ذلك اليوم تمشيت إلى هناك، فوجدت بيتًا مهجورًا. فتحت الباب بصعوبة واندفع إلى وجهى ترابٌ كتيم. ولم تصدق عيناى بما رأت.. وجدت أحدًا أمامى يقف داخل الغرفة وينظر إلىّ!».

– «ماذا؟! وكيف كان فى ذلك التراب؟!».

– «تلك هى المشكلة. بل ووجدت على رقبته دماء!!».

– «بئسًا لك.. أستمع إليك كل ذلك وأنت تؤلف رواية!».

– «والله بجد».

– «وكيف تقنعنى بذلك؟ أترانى معتوهٌ إلى هذه الدرجة؟».

– «طيب.. اسمع الكبيرة.. عندما كان يحادثنى جاء خلفى، ولما لففت له لم أجده!».

ظل (حامد) ينظر إليه مغلقًا عينيه إلى النص فى ملامح نعسانة. فأعقب (حسن):

– «ولما دخلت البيت وجدت جثته هامدة على الأرض».

فقال (حامد):

– «حسنًا».

– «لا تصدقنى إذًا.. تعالَ معى وسوف تراه بأم عينيك!».

– «ولمَ لا.. سنذهب غدًا».

– «طاه».

ظلا صامتين قليلًا. ثم قال (حامد):

– «أتشوق للعودة إلى الديار. يا ترى ماذا فعل (زكريا) كل هذه الأيام!».

فقال (حسن) وهو يغمز فى نبرةٍ مُلمِّحة جميعنا نعلمها:

– «(زكريا) أَمــ..!».

– «ماذا؟!».

فغمز له غمزتين. ثم قال (حامد):

– «ماذا يا فتى؟! .. مهلًا، أتقصد (ليلى)؟!».

فقال وهو يغمز مرةً أخرى بنفس النبرة:

– «ومَن غير لياليك يا زمان!».

– «بالتأكيد لا.. أعتقد أن والدها زوّجها لغيرى».

– «لا يا فتى، ومن ستتزوج غيرك؟! إنها تحبك أنت!».

– «إنها شديدة الخوف.. تخاف كل شيء؛ تخاف أن يقع مكروهٌ بيننا، تخاف أن تخسر حبنا، تخاف أن يظلمها أحد ولا تتقن التبرير، تخاف الفقدان، تخاف الوحدة والظلمة. والأهم تخاف أن يرانا أحدٌ ونحن معًا حتى أفسد عليها خوفها كثيرًا من الأشياء واللحظات الجميلة بيننا!».

– «والله إن المحب لا يخاف أبدًا.. لا بشأن مستقبله ولا حياته! إن الحبَّ للمحبِّ غطاءٌ ساترٌ يحتضنه ويحتويه من الدنيا! فلا يخاف مع من يحب شيئًا. فالحب له هو الأمان والطمأنينة!».

– «باتت لا تخاف شيئًا غير أننا نخسر بعضنا.. فلا تحب أبيها لأنه يسخط عليها ولا يعاملها كما تُعامَل الفتيات بلطف وحنان».

ثم أعقب ملتفتًا إليه:

– «ولكن من أين أتيت بهذه الكلمات العاطفية؟».

ثم غمز مبتسمًا وقال:

– «الله يسهل له يا عم».

فضيّق (حسن) مقلتا عينيه مائلًا جانبيّ شفتيه إلى الأسفل ناظرًا إليه بابتسامة فى صمت. وجلسوا صامتين حتى أقبل عليهم العم (يحيى) بعصاه التى يرتكز عليها، وأغنامه التى يرعاها. فتركها بالمكان طليقة تأكل من الأرض. ألقى عليهما السلام وأعدوا الطعام وتناولوه. ولاحظ (حسن) أن (ليان) لم تأتِ بعد وقد أتى الغروب. فتعجب وسأل العم:

– «ألن تأتى (ليان) اليوم؟!».

فقال له:

– «كانت معى وقالت إن والدها مريض، فستقعد معه اليوم».

فصمت وأخذ يفكر بها، وقال فى دخيلته:

«أفتقدك كطفلٍ صغيرٍ راوغته أمه حتى يخرج من المنزل..

فأخذ يبحث عنه فى كل أركانه تعشمًا فى إيجاده!».

أتى المغرب وصلّوا، وأخذوا يقومون بأعمال فلاحة كريّهم الأشجار، وجمعهم لبيض الدجاج، وتوفير العلف والمياه للطيور والأغنام. ظلوا حتى العشاء وصلوها، و(حسن) يفتقد (ليان) كثيرًا. وكان الهواء باردًا، وجلسوا حول نار الحطب التى كانت تدفئهم.

يقول (حامد):

– «إن الأيامَ صعبةٌ فى كل شىء!».

قال له العم:

– «يا بنى، ما يحدث فى الدنيا يثبت أن المال هو أقل درجات الرزق وأن الصحة وراحة البال أعلى درجاته. فقولوا دومًا الحمد لله حتى يديم لكم الله رزقكم. فإن هذه دنيا راحلة، كل ما فيها، ما نخافه، ما نتمناه، ما نشتهيه، أحلامنا، المصائب، ما يسلبنا إليه ويجعلنا نفتتن بالدنيا، كل ذلك راحل، خلقه الله فقط اختبارًا لعباده، وتكفل برزقهم. لم يخلقنا إلا لعبادته أساسًا إلى أن نلقاه. فإننا لسنا آخذين منها شيئًا.

وعند الله.. ستُحاسب على أفعالك. فإن يومًا فعلت خيرًا، تؤجر عليه، وإن أسأت، فلك عقاب، وميزان الله أعدل».

– «الناس يتغيرون وتتبدل أحوالهم، سواءً كان بالحسن أو بالسوء.. وإنى أخاف كثيرًا، فأدعوَ الله ألا أتغير عما أنا عليه الآن! فالإنسان شديد الخوف على كل شيءٍ حوله».

– «بالطبع، وممَّ تخاف إذًا؟».

– «لا داعى للحديث، فلن تفهمنى كما لا يفهمنى أحد!».

– «لن يفهمك أحد لأنك لم تعطه الفرصة ليفهمك! لم تفتح له عقلك وتخبره عما بداخلك!».

– «ولكن.. أحيانًا نفضّل أن نكون خاطئين على أن نبرر شيئًا لن يفهمه أحدٌ بسوء فهمه!».

– «ليس صوابًا ما تقوله يا (حامد)!».

– «وكيف إذًا؟!».

– «مثل إن كنت تعلم أن شخصًا ما ذو كفاءة.. فلا تعنته بالسوء فقط لأنك لا تحبه! وأنك إذا أردت مهاجمته فى شىء، فاجمع معلوماتك أولًا قبل تفوهك.. وعندها تضرب ضربتك وأنت على صواب! فكذلك إن كنت ترى من شخصٍ أنه لا يفهمك أو أن عقلك ملىء بالأفكار المتناقضة، فتعتقد بأنه لن يفهمك أحد!».

– «وإذا...».

فقاطعه وقال:

– «لن يحمل أحدٌ عنك همك، لكنهم يريدون أن يعرفوه، ولكن هنالك أشخاصٌ يسألونك ما بك ليزيلوه».

فتدخل (حسن) فى منتصف الحوار، وقال للعم:

– «يا عم (يحيى)، المرءُ منا لا يدرى مع من سيسكن عقله وقلبه معه بالنهاية!».

فصمت العم قليلًا ثم قال له:

– «دعنى أخبرك شيئًا.. لتتخيل نفسك سابحًا فى الفضاء، فتجدُ من النجوم ما يشبهك، وتجد منها ما يقرُبك وما يبعُدُ عنك.. كذلك هى الحياة.. تجدُ أقمارًا وليسَ بقمر، ولكن تجد شمسًا واحدة. لكنَّ تلك الشمس قد تحرقك يومًا رُغم ما قدمته لك من دفءٍ وحنان.. إلا أنها قد تبعد عنك يومًا أو تقترب فتحرقك، وقد ظننت أنها الدائم! ولكن.. سيأتى يومٌ ويأتى بك ثقبٌ أسود يجذبُك إليه جذبَ الشمسِ لكواكبها. فيحتويك بداخله مدى الحياةِ لن تفارقنَّه مهما حدث. وتظل ساكنًا بداخله ويكون وطنَك الثانى الأبدى.. بعد أمك!».

فقال (حسن) بعد تفكير:

– «يا عم (يحيى).. إن الشىء الذى أحبه وأريده أجده عند الناس ولا يأتى إلىّ! لدرجةِ أنك تصل إلى مرحلةٍ تشبه الفطام لا تشتهى فيها شيئًا حتى وإن علمت أنه سيُساق إليك سوقًا، فقد اعتدتُ أن الأشياء التى أريدها لا تأتى إلىّ!».

صمت العم قليلًا ثم قال له:

– «وماذا كان حلمك يا بنى؟».

فظل صامتًا ناظرًا إلى الأرض وكأنه يسترجع ماضيًا يؤذيه. حتى قال له العم:

– «هل أكلت سد الحنك أم ماذا؟».

فقال له:

– «لم يكن حلمًا.. بل كانت أحلامًا كثيرة فى وقتٍ قليل! أحلامًا تأتى فتحفنى.. وأحلامًا أخرى تودعنى. ولم يبقَ لى سوى كونى كاتبٌ بائس لا يجد عملًا. حتى أتى بىَ الحال إلى هنا .. !».

– «لا تظن أن الأشياءَ ستأتى إليك وحدها إذا تركتها.. فليس النصيبُ بقطعةِ لحمٍ أكلت منها وتركتها، فتجد والدتك بالنهاية تعطيها نصيبًا لك..!».

تذكر العم أمر الأغنام والطيور، فقام يُدخلها ويطعمها ما يبقيها لليوم التالى وينظف الغرفة من روثها. وقال لهم يعدون قهوة حتى يأتى. وفى أثناء جلسة (حامد) و(حسن)، قال (حسن):

– «قل لى، ماذا تنتظر فى أمر (ليلى)؟ وما الذى سيرفضك أبوها بسببه؟ إنك تاجرٌ ولك من التجارات ما يُعجَبُ عقلهم بها! كلُّ شيءٍ فيك مناسبٌ لها فما لأبيها إذًا؟!

ولا تبحث عن الكمال، بل تخشاه! فلا شيءَ مكتملٌ فينا، وإن شعرت بذلك فلتخف، لأن الأشياء المكتملة لا تبقى!».

فقال (حامد) مسندًا رأسه على الأريكة ناظرًا إلى السماء:

– «أتعلم.. نحن الاثنان بداخلنا حكاوٍ ودفاترَ من حبٍّ للآخر.. وكل منا يدرى بذلك.. ولكننا نخاف أن يتراكض كل منا فى سبيلٍ غير سبيل لسبب غير معلوم! لهذا أسارع السيرَ خيفة أى شيء.. لكننى قد كَلّ متنِى!».

– «عجبًا للإنسان.. إذا رأى صفوَ الجمال فى امرءٍ، يسقط فى ناظريه جمالُ باقى القومِ وإن كانوا أعلى قدرًا.. ولا يأبه إن كان سيضع نفسه فى دوامةٍ من الألم فى سبيل هذا!».

فصمت (حامد) قليلًا وقال:

– «أَعدّ لنا قهوة».

وكان (حسن) بالفعل سيفعل ذلك لأنه يريد، لكن لزم مكانه ورفض بعدما قال (حامد). فالمرءُ لا يحب أن يأمره أحدٌ بفعل شيءٍ كان أساسًا سيفعله بنفسه، فيُشعِر الآخر بأنه لبى طلبه.

فقال (حسن):

– «لا أريد الآن».

– «افعل لى أنا والعم إذًا».

– «حسنًا، عندما يأتى».

– «كم أنت بارد!».

ثم سأله (حامد) فى منتصف رده بشأن (ليان) وما الأمر معه. فإن (حسن) و(حامد) أصدقاءُ جدًا أخلّاء لبعضهم يتحاكيان فى أدق الأمور.

فقال له (حسن):

– «(ليان)! .. إن كل ما أخذنى فى كلامها هو عينيها! أنا لم أرَ عينًا كهذه من قبل! إنها تشبه حبة عنبٍ أخذت لون الذبيب. ولها رموشًا جارحة لم تستطع عيناى إطالة النظر إليها من قوتها! كل ما أريده الآن هو نظرة أخرى إلها!».

فرد عليه (حامد) قائلًا:

– «أوَإن هذا فإنك تريد أن تُذهب مشاعرك إلى الهلاك يا رجل! إن نظرةً أخرى إليها وستنوّم عقلك على ألا يريد سواها!».

فقال سريعًا:

– «حقًا كل ما أريده هو ألا أرى سواها! فلن أتفرغ لكى أرى حسرتى على حالىَ هذا».

فقال (حامد):

– «دعك منها الآن وأعد لنا هذه القهوة التى بجانبك!!».

– «طايب».

وفى أثناء كلامهما.. شعر (حامد) بأنه متعب، فأخبره أنه سيدخل لينام. فقال (حسن):

– «وإن كنت ستنام إذًا فلمَ طلبت قهوةً أيها السخيف؟!».

– «لأننى لم أكن أشعر بالتعب عندما أخبرتك».

دخل (حامد) وظل (حسن) جليسًا وحيدًا تحت ظلام الليل الدامس ذِى الهواء البارد المريح، الذى إذا لامس وجهَ المرءِ قال «الله!». دخل (حامد) وجلس على الأرض ساندًا ظهره على الحائط. وأخذت أفكاره تحاوطه، ويحاور (ليلى) فى دخيلته:

«أنا أعلم أنك تخافين من كل شيء. وربما يجعلك خوفك هذا لا تطيقين العيش به. وأبوكِ يريد زواجك بابن عمدة البلد الحقير هذا لثرائه وطمع والدك. أتذكر عندما كنت لا أريدك أن تتركيني وحدى فى الدنيا.. لكننى أريد أن أطمئن عليك عندما أُوصلك إلى بر الأمان. فإنى أعلم أن الأيام لن تبقى سفننا ترسى فى نفس المرسى. سآوى أنا فى مرسى -ولو طال أمرى- وأنتِ ستأوين فى مرسًى آخر. كنت أقول إنه ستظل سفينتى تسير جوار سفينتك فى البحر تحت العاصفة والأمواج، فأحميك حتى ندخل مياهً هادئة وسماءَ صافية، فتمشين إلى مرساكِ وأطمئن. إلا أن كانت أكبر مخاوفى أن أسير وحدى فى الحياة.. فوجب أن أقسو عليكِ وأبدو لك غريبًا حتى تنسيننى ولا تبكين.. فرحلتِ قبل توديعى!».

ودخل (حسن) هو الآخر فى رحلة تفكيرٍ بـ(ليان)، وكأنها كل العالم ليفكر بها. فهو فائق البال شارده لا يأخذه نومٌ ولا حتى عقله يسلبه إلى النوم؛ فقط ما يستطيع أن ينيّمه هو صوت الأمطار المتساقطة، أو اندفاع الهواء عليه والذى يشعره

بلذة، أو الهدوء الذى يحومُ فى نفسه، أو أن يرى (ليان) قبل النوم. ولأسف (حسن)، تدلُّلَ عقله إلى التفكير بـ(ليان) يجعله مستيقظًا شريدًا، ولا يجد الهدوءَ النفسى بداخله.

فيفكر ويقول:

«قد مضى وقتٌ طويلٌ لى مع (ليان) نتحادث وأتغازل فيها بقدر الإمكان. فهل يُعقل أن تحبنى (ليان)؟! أم أنها مجرد مشاعر الفتيات تلك التى تمتاز بالعاطفة؟! ومن يدرى ماذا يدور تحت فروة رأسهم تلك، فهم كالمجرة التى تحوى كواكب عدة كل كوكبٍ بحال غير حال. هل أحبها بشدة وكأن العشق طيب وأمان، أم أخاف أن أقع فى بئر التعلق والحرمان؟! هه! هذا إن لم أكن تعلقت بها بالفعل.. إننى أرى فيكِ ما لم أره قط يا (ليان)!».

أخذ تفكيره فيها يتعمق حتى ظل يفكر هائمًا بها إلى أن فارَت القهوة وانكب نصفها وهو لا يزال يتمادى التفكير. حتى أتى عليه العم (يحيى) يزجره -كما اعتاد أسلوبه فى الأيام التى خلت- وصاح:

- «يا فتى! انكبت القهوة أمامك!! بمَ شاردٌ أيها التائه؟!».

فرد (حسن):

- «أوه! أعتذر يا عم يحيى، قد شردتُ قليلًا ولم أنتبه!».

- «وماذا سنحتسى نحن فى ليلتك البائسة هذه الآن؟!».

فرد (حسن) مبتسمًا يحاول تهدئته:

- «وكيف تكون بائسةً ونحن بحضرتك يا عم (يحيى)؟».

فثبت العم (يحيى) قليلًا وحاجباه معقودين إلى الأسفل. حتى اعتدلت وراق وجلس صامتًا وكأنه يفكر ماذا هم بفاعلين. وقال (حسن) فى دخيلته:

«بئسًا يا عم (يحيى)؛ لم تخلُ خلوةً واحدة مع نفسى من دخلاتك المقاطعة تلك! هذا ليس بوقتك! قد كنت فى اتصالٍ روحىٍّ بـ(ليان)!».

حتى قاطع الصمت لعله يخفف التفكير عن عم (يحيى) قائلًا:

– «يا عم (يحيى)، أنا لا أريد حصتى من القهوة، فقد احتسى عقلى قهوته كفاية».

فرد عليه:

– «أوَهكذا راقت لنا الأمور؟! فقد فارت القهوة كلها!».

فضحك (حسن) وقال:

– «نعم صحيح، هلّا نتمشى قليلًا؟».

– «الجو باردٌ جدًا يا بنى، فلنخلد إلى النوم أفضل».

– «وقهوتك؟».

– «وَيْحُك! لمَ تذكرنى وقد نسيت؟!».

فقال (حسن) ضاحكًا:

– «أجل وَيْحِى، أعتذر أعتذر!».

فضحك العم (يحيى)، وقال له:

– «لا يهمك يا بنى، ليست أول مرة تكون أحمقًا».

فثبتت ملامح وجه (حسن) على ملامح المتفاجئ. وذهب العم إلى فراشه. نام العم (يحيى)، و(حامد) يغط فى سابع نومة. ولكن عقل (حسن) لم يخلد أبدًا. وكيف ينام عقلٌ بداخله شخصٌ آخر تعلق به وهذا الشخص يسلبه إليه وهو ليس أمامه؟! كيف ينام إنسانٌ شغله كل الشغل إنسان آخر؟!

فكان سميرُ (حسن) بهذه الليلة هو تخيلُه لها وتصويرُه ملامحِها وجسدها الجذاب فى عقله أمام هذا البدر فى ليلته والذى شبهه بـ(ليان) الجميلة التى اقتحمت عقله وقلبه كاقتحام العير للمزرعة!

إن حب (حسن) لم يكن كقصص الحب التى نسمع عنها أو قرأناها بالروايات، بل إن حبه يشبه فى جوهره الهدوء الروحى الذى يشرح صدره عندما يرى (ليان). وإنه مثل أمطار نهاية سبع سنين القحط التى مرت على مصر القديمة. ويشبه صائمًا فوق مياه النيل ولا يقدر أن يذوقها. فهذا هو الحب الذى لا يدرى إن كان حب طرفين وستكون نصيبه، أم ستلعب الأيامُ لعبتها فتتغير عليه (ليان) أو لا يجدها من الأساس! وامتزج شعورُ سعادته فى تفكيره بحزنٍ مجهول!

وتمر هذه الأيام الطويلة التى اقتربت للشهر. ولم يكن لـ(حامد) و(حسن) أيةُ نية للرحيل فى هذه الأيام، فإنها مطيرة وعاصفة جدًا. عاصفة بالنهار.. وشديدة المطر بالليل وبعد هذه العواصف الرملية. ويظل (حسن) يمارس عادة تأمله فى السماء جالسًا فى برودة الهواء متخيلًا (ليان). وفى إحدى الأيام عندما كان (حسن) يجلس وحيدًا يفكر بالذى يفتقده كثيرًا وقد مر يومان ولم تأتِ إليهم منذ آخر مرة بسبب صعوبة الجو!

ولأن حظ (حسن) عاثرٌ ودائمًا ما تنقطع عنه جلساته الجميلة، ففى أثناء ما كان يفكر بـ(ليان) التى شغلت باله وتفكيره تمامًا.. خرج عليه (حامد) من البيت.

قال له:

– «ما يوقظك حتى الآن يا فتى؟!».

ولا يزال (حسن) سارحًا فى ملكوته الذى لا يريد أحدًا أن يسلبه منه، ولا يريد أن تنقطع عنه خيوط تأملاته. فعاود (حامد) سؤاله حتى أفاقه من عالمه الخاص الذى كان به، فدفع (حسن) زفير غضبٍ من فمه. فقال له:

– «ماذا تريد؟! وما أوقظك الآن؟!!».

فقال (حامد):

– «أنا الذى أسألك السؤال».

– «لا تجب علىّ بسؤال، فأنا أكره ذلك».

– «يا فتى لقد سألتك بالبداية، ماذا يوقظك الآن؟».

فقال (حسن) مُنكِرًا:

– «لا شيء، فقط أسهر وحدى».

فقال (حامد) ساخرًا:

– «حقًا!! اعتقدتك جالسًا مع الأشباح تحكى لهم حواديتك البديهية كالمعتاد!».

– «اتركنى وشأنى يا (حامد) أرجوك واخلد للنوم!».

– «بمَ تفكر أنت؟ قل لى، أنا أعرفك».

ثم قال وهو يغمز بعينه اليسرى:

– «من يسلبك إليه الآن؟».

فقال (حسن) فى هدوء مُتوّهًا لسؤاله:

– «أشتاق لوالدىّ كثيرًا!».

فصمت (حامد) قليلًا ثم قال بعدما جلس بجواره:

– «الله يرحمهم. هوّن عليك.. ما أخذ الله أحدًا إلا وجعله حيًا بيننا كأنه لم يمت! هو فى مكانٍ أفضل بكثيرٍ الآن.. هو عند الذى خلقه! ليس عيبًا أن تبكى على شىءٍ ذهب منك. فأنت إنسان من قلبٍ هين وروح.. ولكن اعلم أن كل شىءٍ ذاهب وللوجه الكريم سنذهب. أو أقول لك! ولمَ تبكى على ما راح؟! فإنك أيضًا راحٍ!».

فقال (حسن):

– «أهكذا تهدئنى؟ اذهب يا (حامد) للنوم أرجوك!».

فقال (حامد) محاولًا التخفيف عنه:

– «يا فتى أنا أداعبك فقط.. لا تكن حزينًا بائسًا إلى هذه الدرجة! أنت بِرميل حزنٍ يا فتى!! هوّن عليك هذه الدنيا اللعينة لا شىء يستحق!! لا تفكر بها كثيرًا فترهقك!! ما تريده لا يأتى إليك.. وما التفت عنه يأتيك! لا شىء يستحق!!».

وتركه (حامد) ودخل يكمل نومه بعدما خرج فى هذا الجو شديد الهواء البارد! وفى أثناء جلسة (حسن) أخذ يسجل مشاعره فى أوراقه. حتى تساقطت نقاط مياه على أوراقه وأمطرت السماء. فخبأ أوراقه فى أحشائه ثم نظر إلى السماء وقال:

– «أيا أيتها الأمطار فلتحفظى أسرارى، اتفقنا؟».

ظل جالسًا تحت المطر يرى السماء تلمع ببرقها، فبدأ يتحدث إليها وكأنما تجيبه بالبرق. نعم، ومن إذًا يحكى له المرء أسراره غير أوراقه وخليله وسكينة روحه، والسماء ذات المعارج فى ليلها؟!

* * *

تحت شجرة.. فى جلسةٍ هادئة يسودُ فيها هدوءُ الأرياف عند الأراضى الزراعية. وتحت سماءَ غائمةٍ يسودها سحابٌ شديد الرمادية. كان يرعى القطيع.. فيسمع مناديًا ينادى من بعيد:

– «(زكريا)! يا (زكريا)!».

فينهض ذاهبًا إليها:

– «نعم يا (ليلى)؟».

– «لقد تأخر (حامد) كثيرًا، وإن الأجواءَ عاصفةٌ وأنا قلقة عليه. فأريد إسماعه خبرً سيفرحه».

– «بلا، لا تقلقى سيعودان».

– «ألا يمكنك أن تذهب إليهم وتأتى بهم؟».

– «هذا مستحيل! ربما يومان ويأتيان.. ربما فى الطريق عائدان».

– «قد مر شهر!! إنه لم يفعلها قط!».

– «ربما تأخرا لشيء ما. سيعودان يا (ليلى)، لا تقلقى».

ثم تركها راكضًا خلف عنزةٍ من قطيعه تجرى بعيدًا تكاد تضل عن القطيع. وتمشت (ليلى) فى جوٍّ كانت تملأه الرياح العاتية المطيّرة لغبار الأرض، وتناجى وتقول فى داخلها:

«لقد تأخرت علىّ كثيرًا يا حبيبى. إننى أنتظرك تأتى وتطلب يدى من أبى وننتهى من هذه الأيام الظلماء التى طالت علينا! إننى أنتظرك بشدة حتى تعود.. ولقد أطلت علىَّ الغياب!».

* * *

(٣)
رحلةٌ تبدأ

مر شهرٌ على إقامتهم فى بيت العم (يحيى)، فالعم أحبهم كثيرًا وهو من أقنعهم بالجلوس كل تلك الأيام تحت حجة «العواصف»، فإنهم يسلّونه ويكونون خيرَ ونسٍ له، ولا شىء سيئ يترتب على إقامتهم. هذا غير أن الأيام حقًا كانت صعبة وأجواؤها كانت صفراء رملية حينًا، وممطرة مطرًا غزيرًا كثيفًا يدوم ساعات دون انقطاع حينًا آخر. وكانت (ليان) طوال هذا الشهر هى ووالدها يأتيان إليهم فى الأوقات الهادئة من أعمال

الطقس. ويتجالسون ويتحادثون أمام نار الوقود التى تعد من علامات الشتاء البارزة. ويتناولون أمامها برتقال ويضحكون كثيرًا فى جلساتٍ كانت خالية من أىِّ شىءٍ يعكرها أو أى همٍّ أو خوف فى الحياة! وزاد الحديث بين أبناء القرية والمدينة، وبالأخص بين (حسن) و(ليان)!

وفى أحد الأيام.. كان أربعتهم –دون (حفيظ)– يتناولون طعام الغداء. فرغ (حامد) من الطعام وفرغ العم وجلس معه يتحاكون بعيدًا عن (حسن) و(ليان) ويأكلان برتقال أتوا به من الأشجار التى بحقل العم (يحيى). وكل اثنين فى بقعة من جوانب الحصير. ظل (حسن) و(ليان) يواصلان طعامهما. وفى أثناء هذه الجلسة.. لاحظوا أن الوقت قد تأخر كثيرًا ولم يأتِ والدها بعد! ولا يعلمون سبب تأخره! فلم يأتِ قبل الغروب، ولم يأكل معهم.. فظلوا جالسين قليلًا فى قلقٍ منتظرينه حين يعود لعله تأخر فى بعض الأعمال.

مرت نصف ساعة واقتربت الساعة للعشاء.. ومر الوقت عليهم قلَقًا ولم يأتِ بعد. قرر (حامد) والعم (يحيى) أن يأخذا عربةً ويذهبا إلى بيته عساهم يجدانه هناك. وقال العم لـ(حسن) أن يظل هو و(ليان) يحفظان البيت، هما فقط سيذهبان إلى بيته. ورحلا.. وفرغ المكان.. وبات الجو خالٍ لهذين القلبين.. فى خلوة جميلة.

وانتهيا من الطعام وأدخلته (ليان) وجلست هى و(حسن) يأكلان برتقال. ويقول لها:

– «لا تقلقى سيجدانه.. ربما تأخر قليلًا».

فقالت فى لهجة سخرية:

– «هو بالفعل تأخر، هذا ليس عذرًا بل حقيقة!».

فخجلت وقالت:

– «ماذا! حسنًا ها أنا ذا!».

ثم قال:

– «لا أصدق عيناى.. هل حقًا أجلس معكِ بمفردنا؟!! لا أتخيلك بعقلى الآن، لأنك بالفعل تجلسين أمامى ليس معنا أحد!!».

وأعقب:

– «أعنى أنه لا أحد يجلس معنا.. لا أصدق أن الأيام رضيت عنى للمرة الأولى!».

فقالت (ليان) متعجبة:

– «إممم! ما لك يا فتى!».

فقال بنبرةٍ خافضة:

– «لا شىء.. فقط كلى هذه البرتقالة ودعينى.. كلى كلى».

– «قلت دعينى ماذا؟».

– «ماذا ماذا؟! لا شيء، كلى يا (ليّون)».

– « ليّون!».

فوقفت قطعة البرتقال فى فمه وتوقف عن المضغ ناظرًا إلى الأسفل، إذ ظن أنها لم يعجبها اللقب. حتى أعقبت:

– «أحببت الاسم كثيرًا!».

وواصل المضغ فى أمان، وقالت له:

– «لكن قل لى.. دعينى ماذا؟ أنا كثيرة الفضول!».

فصمت قليلًا وأركَز النظر فى عينيها، ثم قال خافضًا:

– «دعينى أراقب شفتاكِ الصغيرتان وهنّ تمضغان! يا بخت البرتقالة!».

فخجلت كثيرًا وقالت مغيرة للموضوع:

– «الجو باردٌ جدًا وهذا يؤلمنى.. المهم.. لم تقل لى عنك الكثير..».

فانتظر حتى انتهى من ابتلاع فصٍّ من البرتقالة، وقال:

– «أنا يا سيدتى اسمى (حسن عبد الغفار). أعيش فى بلدٍ اسمه (ميت غراب) يبعد بضعة كيلو مترات من هنا وبعيد جدًا. والدىّ متوفيان من عامين وأعيش فى بيتى وحيدًا.. أنا أساسًا وحيدٌ دائمًا. أعمل كاتبًا فى جرنال بالقاهرة، لكننى تقاعدت منذ سنة بسبب أوضاعٍ سياسية حدثت معى هناك. والآن أبحث عن عملٍ آخر.. ولتتخيلى.. هذا البحث أتى بى إلى هنا.. إليكِ! أريدك يا (ليان) أن تكونى زوجةً لى عندما نعود إلى الديار ونَزيد ذريةً تعمرُ الدنيا.. وتأخذين اسمى.. وتكونين مدام (ليان عبد الغفار)! أجمل اسمٍ تنطقه شفتاى فيخفق به قلبى!».

فقالت وقلبها ينبض كثيرًا من دهشة ما سمعت:

– «تتزوجنى!».

– «أجل.. يا (ليان عبغفار)».

ثم نظر إلى عينيها مباشرةً محدقًا إليها، وقال لها بصوتٍ منخفض أول كلمة «أحبك». فإذ دق قلب (ليان) كثيرًا وبدأ جسدها الذى يؤلمها من البرد يرتجف حتى لم تستطع أن تكمل البرتقالة الثانية. وظلت صامتة لا تدرى ماذا تقول أو ماذا تفعل! حتى أنقذها العم (يحيى) –مفسدًا على (حسن) لحظته– وصاح من بعيد يقول:

– «يا أولاد.. ها قد أتينا! لقد كان فى طريقه إلى هنا بالفعل».

فأغمض (حسن) عينيه ضاغطًا على شفتيه مخرجًا زفيرًا يكاد ينفجر من غضب انقطاع لحظاته الجميلة دائمًا رغم أنهم وحدهم تمامًا!! نهضت (ليان)، وجرت إلى والدها واحتضنته. ثم جلسوا وجلست معهم، لكن عقلها كان بعيدًا عنهم منغمسًا فى عالمه الخاص، تفكر فيما سمعت من كلمات لم تسمعها من قبل!

ويحكى لهم والدها:

– «تأخرت قليلًا فيما أقوم به من الأعمال. وبعدها وأنا كنت قادمًا إليكم، سمعت أصوات أقدام قريبة منى، فأنظر لأرى ولا أجد أحدًا! فأنادى فلا أحد يجيب. فأكملت المسير حتى بدأ الكلبان فى النباح بشدة كأنهم يرون شيئًا لا أراه! ولم أستطع أن أسكتهم، بل يزيدون نباحًا بشراسة!! فبعدما رأيت فجأة رجلًا أمامى من بعيد يحدق إلى فى هذه الظلمة. وأناديه ولا يجيب علىّ. وعندما نظرت إلى الكلبان أهدئهما، ولفتُّ إليه مجددًا لم أجده!! وكفت الكلاب عن النباح لا أدرى ما هذا!! فأتيت بسرعة حتى وجدتمونى».

فقال العم:

– «وما عساه يكون هذا؟!!».

– «لا أدرى.. ربما يكون أحدًا أتى من المدينة!».

– «لا أرجّح لك أن تذهب مع (ليان) الآن.. يمكنك أن تبيت معنا هنا اليوم، وترحل بالنهار».

فصمت (حفيظ) قليلًا ثم قال:

– «أول مرةٍ يحدث لى شىءٌ كهذا، ربما لأننى أتيت بالليل، لا أدرى».

– «حسنًا، دعونا ننام.. أنا و(حامد) و(حسن) سننام بالصالة، وأنت و(ليان) بالغرفة».

سعِد (حسن) بهذا الكلام كثيرًا، فإنه لن ينام و(ليان) تبعد عنه ويفكر بها وهى بعيدة، بل وهى بين أربعة جدرانٍ فى نفس المكان! لكن فى الوقت ذاته لا يدرى ما قول (ليان) بزواجه منها. كان اليوم شديد البرودة، وكانت ليلته مطيرةً جدًا ورياحها شديدة عاصفة حتى كان صوتها مخيف. فدخلوا من المطر، وشربوا قليلًا من الماء وذهب كلٌّ منهم إلى فراشه مستدفئًا منكمشًا فى لحافه.

وفى اليوم التالى، أفاق (حسن) وفعل ما يفعله المستيقظون من نومهم. ووجد (حامد) نائمًا فى فراشه. والعم بالخارج كعادته وكعادة أهل زمان يستيقظون باكرًا، الذين منهم من يذهب إلى حقله الذى عاهد آباءه وأجداده على زراعته، ومنهم من يخرج برفقته أغنامه وخِرافه وأبقاره. ولم يجد أيضًا (ليان) ووالدها، فقد رحلا باكرًا.. وتركته فى دوامة تفكيره وحيدًا لا يفعل سوى أنه يردد الاسم فى دخلات نفسه مرارًا وتكررًا كأنه يصبّر نفسه، فيقول «ليان عبد الغفار!».

أتى عليهم الظهر ولم يستيقظ (حامد)، فصلّاه (حسن) وحيدًا. وأتى العم ولا يزال (حامد) نائمًا، حتى دخلوا يعدون الفطور وانتهوا من ذلك. فدخل (حسن) يوقظ (حامد).. لكنّه راقدٌ لا يستيقظ! يناديه (حسن) مرارًا وتكرارًا.. ويحركه وهو لا يعطى ردًا ولا حركة! فنادى (حسن) للعم بسرعة يأتيه ليرى ما بـ(حامد) الذى لا يريد الاستيقاظ! فيحاولان إيقاظه لكن بلا جدوى! فدق قلبهم خوفًا من أنه يكون قد مات! فوضع العم (يحيى) أذنه على صدر (حامد) وحمدًا لله وجده ينبض،

فاطمأنّ (حسن) بذلك. ثم وضع يده على رأسه فوجدها ساخنةً جدًا! وكذلك يداه ورقبته حرارتهما مرتفعة. فأدرك أنه ربما التقط نزلةَ بردٍ شديدة وهبط ضغطه. فقال لـ(حسن) ما إن كان يعانى من شىء فى طبيعته أم ماذا، فأخبره (حسن) أن مناعة جسم (حامد) ضعيفة ولديه فقرُ دمٍ شديد، لذا فالتقط نزلة البرد بسرعة. فأخبره العم (يحيى) أن يذهب إلى (ليان) ويحضرها هى وأبيها ليأتيا بدواءٍ عندها. وهو سوف يضع له كمادات لحين عودة (حسن).

وجاء فى جوف (حسن) شعوران متناقضان؛ شعور سروره من ذهابه إلى (ليان)، وشعور خوفه على صديقه وعشرة عمره ورفيق دربه (حامد). وما أسوأ من وجود شعورَين متناقضَين فى داخل المرء! فإن هذا لأسوأ ما قد يواجهنّه امرؤٌ فى حياته! ذاهبًا فى رحلةٍ طويلة جديدة... قد تكون بلا عودة!

* * *

طريق أجا-السنبلاوين
(اتجاه ميت غراب)
Noob Tareef
نوب طريف
الطريق الذى سلكه (حسن) ذهابا
السنبلاوين
Kafr Bani Salem
كفر بني سالم
Tukh Al Aqlam
طوخ الأقلام

انطلق (حسن) فى طريقه إلى الشَّمال على متن الحصان الذى أسماه فيما بعد (محسن)، دون أن يعلم جنسه ذكرًا كان أم أنثى. وهو لا يعلم علامات الصحارى ولا الطريق الذى تسلكه (ليان) وأبوها ذاهبين إليهم. فذهب شمالًا من عجلته اعتقادًا بأنه طريقهم. وبعد وقتٍ طويل وهو مسرعًا بالحصان، بعِدَ عن بيت العم (يحيى) بمئات المترات حتى وجد المكان حوله فارغًا تمامًا من أى علاماتِ صحراء كصخرٍ أو أعمدة أو بيوت أو آثار سائر. كان الطريق فارغًا تمامًا. والرمال أمامه ليس عليها أى آثار لإنسانٍ ولا حيوان! وكان الجو شديدَ الرياح عاصفًا جدًا تكاد رياحه تطايره من مكانه وتبعده مترات بعيدة! والسماء رماديةٌ لا يوجد أىُّ لونٍ أصفرَ لأشعة الشمس، ولا حتى الرمال، فإن لونها كان باهتًا انعكاسًا لرماديةِ السماء.

أخذ الجو عليهما يطاير الرمال الرواسى من فوق الأرض. بل إن الرياحَ نظفت الرمال من أى حفرٍ أو تعرجاتٍ فوقها. ولأن الرياح كانت شديدة جدًا، كان (حسن) وحصانه يتمايلان

ويفقدان توازنهما يمينًا ويسارا. فنزل (حسن) من فوق ظهره يسير بجانبه ويتحدث إليه، فيقول:

– «مرحبًا يا صديقى، أتعلمنى؟»

صمت (حسن) منتظرًا منه إعطاء أى إشارة رد، لكنّ الحصان بالتأكيد لم يعطِ له أى رد فعل. فواصل (حسن):

– «أتذكرنى؟ أنا الذى ذات يومٍ أدخلتك إلى غرفتك مع باقى رفقائك ووضعت لك طعام! ربما تتساءل لما اخترتك أنت، حسنًا، سأخبرك شيئًا.. وهل أنا سُيّرت على (ليان)، أم أننى اخترتها عندما وجدتها أمامى وكانت فائقة الجمال فيها حسنى الروح ومحتواها الحُلو؟ بالتأكيد عرفتَ الإجابة، فإن قريتى بها الكثيرات من الفتيات الحسناواتِ أيضًا. لكن (ليان) أجمل من رأت عينى! و...».

فأحدثَ الحصانُ صوتًا عاديًا بفمه كما تفعل الحيوانات أصواتا. فاتخذه عقل (حسن) على أنه يرد عليه ويقول له «أى بلد؟».

فقال له (حسن):

– «آه لا تدرى بأى بلدٍ أكون.. أنا من بلدٍ اسمه (ميت غراب)، أتعلمه؟ به كثيرٌ من أصدقائك هناك أيضًا، ومن بينهم حمارٌ اسمه (زكريا)، لا يجيد سوى إعداد القهوة الشهية ورعاية قطيعه. فـ.. لكننى لست أرعاهم كما أرعاك أنت! أوَعلمت الآن أننى اهتم بك؟

المهم.. عائلتى وباقى قريتى فى الرعى والزراعة لكننى كنت أعمل كاتبًا حزينًا يا صديقى! .. لم تخبرنى بعد، ما اسمك إذًا؟ هل لى أن أسميك أنا؟».

وعندما وجده صامتًا أعقب:

– «ما رأيك فى (ابتسام)؟ أعلم.. إنه اسم أنثى.. ولكنّه كان اسم فرسى العزيزة التى، للأسف، فقدتها فى العاصفة ذات يوم! أنا حزين وأشتاق إليها!

لم تخبرنى بعد، أأنت ذكرٌ أم أنثى؟ هِممم.. دعنى أرى بخبرتى».

وبعد أن نظر إلى ما بين فخذيه، علم أنه ذكرًا فقال:

– «إن ثيابى هذه غريبةٌ جدًا! ما أجمل نعمة الستر!».

ثم صمت قليلًا وقال بابتسامة:

– «لكن لا يهم أن أناديك بـ(ابتسام)، فهو يليق بك .. أراك تروق للحديث معى! أعلم، فلا أحد يتحدث معى إلا وأحبنى».

وظل (حسن) يواصل الحديث مع الحصان الذكر (ابتسام). وقطعوا نصف المسافة، ولا يقابله من الحصان سوى أصواتُ فمه التى يحدثها حينًا، ورفعه لقدمٍ وإنزالها بين حينٍ وآخر. وفى أثناء تحادثهم.. جاءت عليهم عاصفة رملية ذات ريحٍ هيجاء أفقدتهما التوازن وسقطا على الأرض. وكانت كثيفة الرمال تطايرهما إلى مكانٍ آخر بعيد. أمسك (حسن) الحصان بيديه مثبتًا أنفسهما برجليه بقوة، مغلقين عينيهما لكى لا يدخل بهنّ غبار، بعدما رُميا على الأرض. ظلوا دقائق حتى هدأت العاصفة –أو قل بالمعنى الصحيح– ذهبت لمكان

آخر حتى تعود إليهما مجددًا. فقاما الاثنان، وأزال (حسن) الرمال المتطايرة من عليهما.

نهض الاثنان وسارا بضع حركات قليلة.. حتى وجد أمامه رجلٌ يقف بعيدًا بمفرده محدّقًا إليه بلا حراك، جسده فى اتجاهه مباشرةً، ولا يستطيع أن يرى أىَّ ملامحٍ طبيعية لوجهه كأنه مسخ! ويديه بجانبه لا يحرك أى شىءٍ من جسده.. ولا يحرك حتى رأسه يمينًا أو يسارا. فقط محدقًا إليه ولا يتحدث ولا يتحرك ولا يلوّح له! وفى ثباتِ (حسن) ناظرًا إليه، صهل الحصان بصوتٍ عالٍ صخبٍ لا يصمت! وقد كان صخبًا متكلفًا حتى انزعج منه (حسن). فنظر إلى الحصان يسكته، فلا يسكت. فنظر بطرف عينه إلى الرجل لكن لم يجده وكأنه قد تبخر!!

ففزع (حسن) مما رأى وصعد على الحصان بسرعة وانطلق به خائفًا وقلبه يدق بشدة وعيناه مفتوحتان على آخرهما. فينظر حوله خيفةَ أن يجد هذا المخلوق الذى خمّنه جنًّا! لكنه لا يجد أحدًا تمامًا. ثم ينظر إلى خلفه من جهة اليمين فإذ

يجده يجرى ورائه كأنه وحشٌ يطارده يريد التهامه!! ولاحظ (حسن) عيناه الكبيرتان المخيفتان تنظران إليه وفمه مفتوح بأنياب عليها دماء!! وفور أن رأى هذا المخلوق بَسْمَل (حسن) ذاكرًا الله ربه وقلبه المرتعب ينبض سريعًا! فقفز الرجل إلى اليسار فالتفت (حسن) للجانب الآخر فوجد المكان فارغًا تمامًا وكأنه تبخر مرةً أخرى!!

وقال للحصان فى فزعة:

– «أسرع يا (ابتسام) أسرع!! .. ويحيك يا (حسن)!».

وواصل ذكر الله وقراءة القرآن والمحصنات، ويقول:

– «ما هذا الشىء؟!! أهذا مسخٌ أم جنّ؟! لمَ ظهر لى وركض ورائى؟! أيعقل! أن يكون عِفريت ابن العم (يحيى)؟! أيضًا ولمَ يجرى ورائى؟!! ألأننى فتحت الباب؟!! تبًّا لى! اجرى يا (ابتسام) اجرى!».

ويجرى (ابتسام) سريعًا متراتٍ عديدة حتى رأى (حسن) بيوتًا أمامه على مد نظره بعيدًا حتى وصل إليها.

وصل إليها (حسن)، ونزل من فوق (ابتسام)، وسار بين البيوت التى يرى أبوابها مغلقة. ثم واصل المشى بطول ترعة مياه تنتصف هذه البلدة على جانبيها. وظل يسير حتى وجد أمامه (ليان). كانت واقفةً أمامه على بُعد خطواتٍ قليلة تُطعم طيورها. فقال لها بكل شوقٍ ملأ قلبه الخائف المفطور:

– «ليان!».

ثم ألقى نفسه نائمًا على الأرض. ومن شدة خوفه التى كان بها ومن شوقه إليها.. بدأ قلبه يهدأ حينما رآها.. (ليان).

* * *

– «(حسن)! كيف أتيت إلى هنا؟ وأين الباقون؟».

قال نائمًا على جانبه الأيسر ناظرًا إلى (ليان) يأخذ أنفاسه:

– «افتقدتك كثيرًا!».

– «ماذا حدث؟! تعالَ إلى هنا».

ثم استلقى على ظهره صائحًا بـ«اااه يامّاااا».

فذهبت (ليان) تحضر له كوب ماء يشربه وعادت إليه وأعطته الكوب. فأخذ يشربه رويدًا رويدًا وهو ينظر إلى عينيها وأنفاسه سريعة جدًا. حتى فرغ وأعطاها الكوب وقال لها:

– «وأين والدك؟».

فردت وهى تأخذ الكوب:

– «بالخارج.. أين عمى (يحيى)؟».

– «أتيت وحدى».

فأمسكت بذراعه تنهضه من على الأرض وأعقبت:

– «اهدأ قليلًا.. وهيّا قم من على الأرض واحكِ لى ما الذى أتاك وحدك إلى هنا، أين الباقون؟ أحَدث مكروهٌ لعمى (يحيى)؟!».

– «أنتِ تشبهين النساء فى كثرة أسئلتك المتتالية. مهلك علىّ وسوف أجيبك بكل شىء».

– «أشبه من؟ لمَ أتيت؟!».

– «اهدئى يا فتاة! سآخذ أنفاسى أولًا وأخبرك!».

ولا تزال تنتظر جوابه، وهو يتمالك أنفاسه وأخبرها فى مرةٍ واحدة بلا توقف:

– «أحتاج مساعدتك؛ صديقى (حامد) مَرِضَ ورأيت عِفريتًا وكاد يقتلنى وهذا (ابتسام)».

فظلت ناظرةً إليه تتمالكها نظرة (بوحة)، منتظرةً أن يخبرها معلومةً مفهومة. وقالت له:

– «ماذا تقول أنت؟! أيُّ عفريت، وما به صديقك؟!».

ثم قال لها بنبرةٍ عالية:

– «صديقى مريضٌ يا (ليان) أعدّى له دواء أرجوكِ!».

– «ما به صديقك لم أفهم شيئًا؟!».

قال (حسن) بعدما هدأت أنفاسه أخيرًا:

– «(حامد) لديه فقر دم والتقط نزلة برد، ونحتاجك لتسعفى حرارته».

– «وكيف جئت وعرفت الطريق؟».

– «سأحكى لك لاحقًا. أين والدك؟ أريدكما أن تأتيا معى إلى هناك، فإنه صديقى العزيز وأخاف أن أفقده!».

– «والدى ليس هنا؛ إنه بالخارج. لا أدرى متى يعود. ولكنى سأعدّ لك شيئًا تأخذه إليه وسأخبرك كيف وتذهب أنت، فوالدى ليس هنا».

فبعدما أنهت كلامها نظرت إليه عندما وجددته صامتًا، وقالت له:

– «حسنًا يا (حسن)؟».

فهز رأسه للأسفل ببطءٍ شديد موافقًا كلامها مطيلًا النظر إليها.

* * *

أفاق (حامد) من كمادات العم (يحيى)، وأعطاه كوب مياه ليشرب ويرتوى. وبعدما عاد له وعيه وأصبح بمقدوره الحراك والتحدث، قال له العم:

– «حمدًا لله على سلامتك يا بنى! كيف تشعر؟».

وأول ما قاله لما أفاق:

– «أين (حسن)؟».

فالصديق فى الطريق، معينٌ حين تضيق. فرد العم:

– «أرسلته إلى (ليان) يحضِر دواءً لك. قلقنا عليك كثيرًا! وظللت أحاول إيفاقك منذ أن ذهب».

– «أنا بخير يا عم (يحيى). ماذا حدث؟».

– «لا عليك يا بنى، اشرب المزيد من المياه. سيأتى (حسن) بعد قريب ويأتى إليك بدواء. ولكن قل لى.. كيف نمت البارحة؟».

– «نمت بثيابى نفسها التى أنام بها كل يوم. لكننى منذ يومين وأنا أسعل وأشعر بالتعب، فلَربما أتتنى نزلة برد».

– «أجل أجل أجل، سلمك الله يا حبيبى. سيأتى عما قريب. فقط الآن استرح تحت فراشك وادفأ واشرب هذا الليمون الساخن».

* * *

جلس (حسن) على عتبة البيت يداعب حصانه (ابتسام) الذى شاركه ارتعاب قلبه فى تلك الساعات. وفى أثناء انتظاره لـ(ليان) تعد له حساءً مداويًا لنزلة البرد وبعض الأشياء.. وجد والدها قادمًا نحو البيت من بعيد وحوله خِرافه وأبقاره وكلابه، فلما رآه (حسن) نهض وذهب ليلتقى به حتى رأى الكلبان، فجرى إلى (ليان).

– «لياااان!!».

– «ما بك؟!!».

ثم حمى نفسه أمام مدخل الباب يراقبه وهو قادم إليه. فترك والدها المرعى بعيدًا تذهب إلى مأواها ومعها الكلاب.

ثم قدم إليه وقال له فى نظرة استعجاب مُنزلًا حاجبيه:

– «ماذا تفعل هنا؟!!».

– «أرسلنى عم (يحيى) لجلب دواءٍ لصديقى (حامد)، فهو مريضٌ جدًا وفاقد الوعى».

– «وما به؟!».

– «مريضٌ جدًا وفاقد الوعى».

– «وما به؟».

– «نال نزلةً بردٍ شديدةٍ جدًا للأسف».

– «سلمه الله من كل سوء! حسنًا دعنا نذهب إليه بسرعة».

– «ستأتون؟!!».

– «بالطبع لمَ لا؟».

فسعِد (حسن) بذلك وعلت الابتسامة على وجهه. وانتهت (ليان) من إعداد مادتها، وذهب والدها ليأتى بعربةٍ يربطها بحصان، ويربطوا حصانَ (حسن) بالخلف. فسيسافرون إلى العم على متن على هذه المركب. وسعِد (حسن) أن (ليان) سوف تذهب معه، فلَربما يطيلان الجلوس وتحلوا عيناه لرؤيتها مجددًا. وعندما ذهبوا ليركبوا العربة.. لاحظ (حسن) قماشةً

زرقاءَ مربوطة فى أعلى قدم الحصان اليسرى. وهذه القماشة هى نفسها التى على (ابتسام) خاصتهم التى سافروا بها رحلتهم من قريتهم إلى المدينة!!

فقال (حسن):

– «أيعقل!! .. عم (حفيظ).. أقد وجدت هذه الفرس تائهةً فى الصحراء ذات يوم؟!».

– «نعم، وكيف علمت؟!».

– «يا إلاااهى!! إنها نفسها (ابتسام) وربى!».

فاحتضنها ثم أعقب:

– «افتقدت يا عزيزتى!! أين كنتِ؟! أين ذهبتِ؟!».

فنظر إلى والد (ليان) وقال:

– «إنها الفرسُ خاصتى التى افتقدتها أنا و(حامد) فى العاصفة عندما كنا فى طريقنا إلى (السنبلاوين)! وهذه العصبة التى ربطتها لها ونحن فى تلك الخيمة؛ خيمتك!».

فقال له (حفيظ):

– «هذا عجيب جدًا!! لا بأس.. فلتأخذها معك إذًا وأنت راحل. قد وجدتها فى طريقى إلى البيت جالسةً على الأرض بجانب صخرتين ويملؤها الرمل، فنظفتها وأخذتها معى».

– «جنب صخرتين!!».

فنظر (حسن) إليها وقال:

– «أصيلة يا (ابتسام)!».

وركبوا الثلاثة، وانطلقوا فى طريقهم نحو بيت العم (يحيى).

* * *

خوفٌ بعد خوف

ذهب (حسن) و(ليان) ووالدها على متن عربة الحِصان – الذَكر– الخاص بالعم (حفيظ)، وربطوا (ابتسام) الأنثى فى خلف العربة. وجلس (حفيظ) على اليسار يقودها، و(ليان) على يمينه، و(حسن) مستربعًا خلفهم فى واجهة (ابتسام).

يقول: (حسن):

– «وكيف تأتيان إذًا إلى العم (يحيى) كل يومٍ دون أن تضلان الطريق؟!».

فقال (حفيظ):

– «نحن نسير فى طريقٍ منحنِى؛ نذهب إلى مدخل (السنبلاوين)، ثم نتجه يمينًا إليه كما سوف نفعل الآن».

– «حقًا؟! لهذا قد سرت فى طريقٍ ليس به أىُّ علاماتٍ تدلنى إلى وجهتكم! فقد اتخذت الطريق إلى الشمال مباشرةً وشعرت أننى فى وادٍ بالجزيرة العربية!».

– «لا لا.. سأريك الطريق. ولكن قل لى صحيح.. من أى طريق يكون بلدك هذا؟».

– «لا أدرى.. ولكن عندما نذهب إلى المدينة سأريكما من أين أتينا».

– «إنها أول مرةٍ لكما أن تأتيان إلى هنا، أليس كذلك؟».

– «صحيح، ولن تكون الأخيرة إن شاء الله».

قال ذلك ناظرًا إلى (ليان)، التى لاحظ ابتسامتها على وجهها وهى تنصت إليه.

نظر (حسن) إلى (ابتسام) يقول إليها:

– «كيف حالك يا (ابتسام)؟ اشتقتِ إليّ كثيرًا وافتقدتنى، أليس كذاك؟».

فضحكت (ليان) وضحك والدها، وسعِد (حسن) بذلك كثيرًا. ثم استلقى على ظهره ناظرًا إلى السماء ويتخيل (ليان).

اقترب عليهم المغرب، وكان الجو مغيمًا به سحبٌ كثيرة وشديدة البرودة، وكانت السماء تسرج كل حين. وهم مكتسون فى ثوبهم ذات الصوف الكثيف الذى يدفئ غير المُدفَئين.

وفى أثناء سيرهم.. جاءت رياحٌ شديدة، فانقبعوا داخل ثوبهم مغطين رؤوسهم. فقال والد (ليان) بصوت عالٍ حتى يسمعونه من صوت الرياح:

– «تمسكوا جيدًا!!».

وفى أثناء سيرهم عندما كانت تبعد عنهم (السنبلاوين) بستّين مترًا.. أتت عليهم عاصفةٌ رملية شديدة طيّرتهم من فوق العربة وأوقعت الأحصنة نفسها.

وأخذت الريحُ الهيجاء بترابها تطايرهم حتى فرّقت ثلاثتهم عن بعضهم. وظلت شدتها مدة الربع ساعة تطاير فيهم حتى أبعدت كلَّ واحدٍ منهم فى مكانٍ غير مكان يبعد عن الآخر بمترات عديدة.

وبعدها.. أمطرت عليهم السماء، وأخذوا ينادون بعضهم لكن لا أحد يسمع من صوت الرياح والأمطار. فسار كلُّ واحدٍ فى اتجاه عسى أن يجد الآخر.. ولكن.. يمشون ويبحثون فى اتجاهٍ غير الآخر.. ويبدو أنهم قد فقدوا بعضهم!

حضر الليلُ وأمسى الجوُّ، ولا عصفور صَوْصو.. أتى بردائهِ يكسو الضوءَ، والقمرُ يهلهل. ساروا بسرعة وركضَ حصانُهُ فى جوفِ الصحرِ.. وتظلُّ السماءُ تمطّر عليهم مطرًا. ملتفّينَ فى معاطفهم تدفِئهم دفئًا؛ من شدةِ بردِ الجوِّ عليهم وتدفّئهم. ويلهو البرقُ مع الرعدِ فى مشهدٍ مذهل.. لا نشاهدهُ إلا قليلًا، قليلًا جدًا!

ظل (حسن) يبحث عنهم وهو يسير بصعوبة من سيولة الأرض التى أحدثتها الأمطار. وينادى:

– «لياااان.. ابتساااام.. عم حفيييااااظ!».

وفقد الأمل أن يجد أحدًا.. ولا يدرى إلى أين يذهب.. فلا يعلم أى شيءٍ هنا.. ولا يدرى إن كان اتجاه سيره فى الطريق الصحيح، أم سيبعد عما فيه! فيدخل فى متاهةٍ فى هذه الظلمات القاتمة التى لا ضوء فى المكان غير القمر! والمكان فارغٌ تمامًا.. ولا يعرف سبيلًا للخروج منها فى هذا السير نحو المجهول!

جلس (حسن) على الأرض الملطخة بالطين مغطٍ رأسه والسماء تمطر عليه. جلس خائب الأمل مبتئسًا بائسًا يائسًا عابسًا منتظرًا أن يلقى حتفه أو يأتى كلبٌ يأكله وينتهى أمره، أو يقتله هذا المسخ بأنيابه الحمراء.

وفى أثناء جلوسه.. سمع صوت حركة أقدام سريعة خلفه! فالتفت إلى الخلف ليرى فلم يجد شيئًا!! التفت فى كلِّ الاتجاهات ولم يجد حتى ظلًا! ثم قام يسير وقلبه يدق بسرعة.. وفى أثناء سيره.. يسمع الأصوات تعود مرة أخرى ويبدو أنها زادت! فينظر خلفه بسرعة التفات ولا يجد شيئًا مجددًا!! والمكان مظلمٌ ليس به سوى ضوء القمر ليرى به. ويدق قلب (حسن) خوفًا. فيزيد من سرعته ويمشى للأمام وهو ينظر يمينًا ويسارًا بسرعة وخوف.

وعندما التفّ رأسه إلى اليمين. وجاء بعدها ينظر إلى اليسار.. وجد الرجل المسخ يجرى عليه وعيناه تحدقان له فى نظرةِ غضبٍ وتلمعان لونًا أصفر!! وفمه مفتوحٌ على مصراعيه ظاهرةٌ أنيابهُ ذات الدماء الحمراء!! وفور أن رآه (حسن) فزع وصاح، ثم ذكر اسم ربه الأعلى، فهرب المسخ الذى لا ظل له واختفى!!

فركض (حسن) بأقصى سرعته ولسانه لم يتوقف عن ذكر الله. ويصيح حينًا «لياااااان»، وحينًا «بسم الله الرحمن الرحيم». ويقرأ آية الكرسى والمحصنات حتى حفظه الله من كل سوء. وظل يركض حتى فقد وعيه من شدة خوفه وسرعة ضربات قلبه. وخرت قواه وأُغلقت عيناه وهبط أرضًا.

* * *

– «من هناك؟!».

– «افتح، إنه أنا!».

بعدها فُتح الباب وكان يرتجف كثيرًا، وثوبه مُعبّأٌ بالمياه. فدخل وجلس بين العم (يحيى) و(حامد). وأعطاه العم (يحيى) ثوبًا آخر غير الذى معه فيرتديه ليدفئه وهم جالسون أمام نار الوقود. فقال لهم:

– «ألم تأتِ (ليان)! يا الله!!».

قال العم:

– «ماذا حدث أخبرنى؟!».

فشرب العم (حفيظ) من القلة وقال وهو يرتجف:

– «جاءت علينا عاصفةٌ جديدة نطحتنا وطيّرتنا بعيدًا عن بعضنا. فأخذت أبحث عنهم كثيرًا لكننى لم أجد أحدًا ولم أجد العربة. لم أجد سوى الفرس التى كانت بالخلف فأتيت عليها».

– «وأين (ليان) و(حسن)؟!».

– «لا أدرى!! ألا يمكننا أن نذهب ونبحث عنهم؟!».

– «لن نستطيع أنا نمشى فى هذا الجو! انتظر قليلًا حتى يهدأ ونخرج إذًا! ربما يأتون هم أيضًا! ادفأ قليلًا حتى لا تلتقط نزلة برد كدأب (حامد)».

فقال (حفيظ) لـ(حامد):

– «وكيف حالك الآن يا (حامد)؟».

فرد (حامد):

– «أشعر بتحسنٍ الآن، بفضل الله ثم العم (يحيى)».

– «سلمك الله من كل سوء».

ثم أعقب:

– «أنا خائفٌ جدًا عليهم! تُرى أين هم الآن؟!».

انتهت الأمطار من النزول. وقرر العم (يحيى) وأخيه أن يذهبا باحثين عن (ليان) و(حسن). ولم يأخذا (حامد) معهما خيفة أن يزيد مرضًا. إذ قال له العم أن يبقى هو هنا ويحفظ البيت حتى يعودا.

ثم خرجا وركبا العربة وانطلقا نحو (السنبلاوين). فقد افترض (حفيظ) أن ربما (ليان) و(حسن) ذهبا إلى هناك. فإنه وجد نفسه بها عندما كان ذاهبًا وحده للعم. فذهبوا إلى هناك ووصلوا لكنهم لم يجداهما بها. وظلّا يبحثان حولها حتى سمعا صوتَ عصيٍّ تُضرب ببعضها كأن أحدهم قادمٌ نحوهم! فلما سمعوا الصوت خافوا وظنوا أنهم يمكن أن يكون أولئك السفاحين أو شيئًا مؤذيًا! فقد كانوا فى جوف البلد! فقررا أن يهربا. وانطلقا إلى العربة وركبا سريعًا حتى وجدَا خلفهما شخصًا يجرى ورائهم يحمل عصًا! ففروا بعيدًا نحو بيت العم (يحيى). وما يدرون إن كانوا فقدوا (ليان) أم ماذا!

خلوة جميلة

– «(حسن)! يا (حسن)!! انهض أرجوك.. ماذا حدث لك؟! (حسن)! أنا هنا.. أنا معك!».

أفاق (حسن) على هذه الكلمات التى كان يسمعها بغير اكتمالِ وعيه، ولا تزال عيناه مغمضتين. وبعدها بقليل استطاع أن يفتح عينيه كاملتين فى إرهاق جسد وقلب.

قال:

– «أين أنا؟».

– «أنت معى.. لا تقلق من أى شىء! (ليان) معك الآن.. لا تقلق من شىء!».

فوضعت (ليان) يدها اليسرى أمام فمه محاولةً أن تشربه بعضًا من مياه الأمطار.

وتقول:

– «اشرب يا حبيبى! اشرب».

فقال وهو فى غير وعى:

– «ماذا قلتِ؟!».

– «اشرب!».

– «قلتِ حبيبى؟!!».

ثم قال وهو غير فائقٍ بتاتًا:

– «أحبك يا (ليان)!».

ثم أغمض عينيه وفقد الوعى إثر إرهاقه. فقالت (ليان):

– «انهض يا (حسن)، دعنا نذهب من هنا ونُغطَّى من الأمطار!».

فأنهضته وسارت به وهى تسنده بيديها. وظلت تمشى به حتى بفضل الله عليهم، وجدت بيتًا أمامهم على بُعد عشرين مترًا. فسارت به إلى هناك حتى دخلوا هذا البيت المهجور. وجلسوا فى ظلمته، و(ليان) مسندةً رأس (حسن) على كتفها الأيمن فى لحظةٍ تسامت بهم وتساموا فى خلوةٍ جميلة!

ظلت (ليان) تُدفئ (حسن)، وتحكّ يده بيديها حتى تصنع حرارةً داخل جسده. وبعد قليل.. أفاق (حسن) من غميته، ولكن لا يقدر على التكلم.

وأول ما قاله فى صوتٍ ضئيلٍ متعب:

– «(ليان)!».

– «أنا هنا بجانبك.. أنا بجانبك لا تقلق. أفِق يا (حسن)! كيف تشعر الآن؟!»

– «أين (حامد)؟ .. ماذا حدث لى؟».

– «كنت أبحث عنك حتى سمعت صوتك من بعيد، فأتيت نحوك ورأيتك تركض سريعًا وتنظر خلفك حتى أنك لم تسمع ندائى. وبعدها بدأت تبطئ حتى وقعت أرضًا. فركضت إليك ووجدتك فاقدًا الوعى».

فاعتدل (حسن) فى الجلسة وكفّت (ليان) عن عمليات التدفئة واعتدلت. وقال بعدما أطال النظر إليها:

– «أشكرك كثيرًا يا (ليان)! لا أعلم من دونك كنت سأعيش أم لا!».

– «اسكت يا (حسونة) واجمد كدا! فقط قم وأشعل بعض الحطب فإن المكان مظلم وأنا أخاف الظلمة جدًا!».

– «(حسونة)! لا أصدق عيناى! .. أحببتُ اسمى الآن!».

فضحكت وقالت:

– «تصدق أذنيك يا أهبل.. وليس عينيك».

فقال:

– «أنتِ جميلة جدًا يا (ليان)!».

فخجلت وقال:

– «وتبدين أجمل فى خجلك!».

فقالت فى خجلٍ خافضةً رأسها من شدة الخجل:

– «طايب، قم بقى!».

فقال وهو يقوم:

– «أنت الطيب كله فى الدنيا يا وَلَا!».

ثم نظر فى ظلمة البيت لا يرى شيئًا فقال:

– «أين نحن؟».

– «وما أدرانى؟».

فأخذ يبحث فى البيت الذى لم يتجاوز ثلاثة أمتار من كل اتجاه! وعندما كان يسير تعثرت قدماه فى شيءٍ على الأرض فسقط. فأخذ يتفحصه حتى شعر أنه يمسك عظمًا!

فاعتقد (حسن) أنها أخشاب فحاول أن ينتشلها لكى يشعل بها نار. فيجد نفسه يجرّ شيئًا كبيرًا ثقيلًا. فيتأكد من فحصه وإذ يجد أنه كان يلمس أيدٍ وأصابع جثةٍ تحولت إلى هيكلٍ عظميّ! فأوسع (حسن) عينيه ودق قلبه فزعًا يحاول إقناع نفسه بأنه ليس الذى برأسه! وفزع عندما علم بذلك، وصاح بصوته لـ(ليان) يقول لها أن يخرجا من هنا بسرعة! فأمسكها من يديها وجرى بها إلى الخارج ويقول لها:

– «ليان!! فلنذهب من هنا بسرعة!!».

– «ماذا هناك؟!».

– «هذه جثة يا (ليان)!! جثة!!».

– «جثة!! أى جثة؟! وكيف؟!!».

– «تعالَىْ معى بسرعة!».

خرجا سريعًا من البيت راكضين لا يعلمان إلى أين يذهبان أو إلام تأخذهم أقدامهم فى هرولة. وتمطر عليهم السماء، وذهبا بعيدًا إلى حيث وجدوا شجرةً كبيرة عالية احتمَوَا تحتها من تساقطات الأمطار. وقالت له (ليان):

– «من أين أتت تلك الجثة أخبرنى؟!».

– «أنا لا أدرى!!».

وصمت يفكر ويتذكر ما له صلة بها.. حتى أدرك أن هذه الجثة بالتأكيد لابن العم (يحيى)! وهذه البيوت التى أتى إليها مسبقًا. وربما تكون الجثة سبب وجود ذلك المسخ! فقرر أن يذهب ويتحلى بالشجاعة.. وحسْم الأمرِ بالمواجهة.. والتغلب على الخوف.. وقرر أن يذهب لينهى هذه المسألة.. مصاحبًا (ليان) فى دربه.

– «(ليان).. اسمعينى جيدًا.. هذا البيت به جثة، وعلينا أن نخرجها منه وندفنها، ثم نرحل من هنا بسرعة قبل أن يقتلنا مسخٌ كالذى رأيته أنا ووالدك».

– «أى مسخ؟! لا أفهم شيئًا!».

– «سأخبرك.. فقط لا تنظرى حولك! .. عندما كنت قادمًا إليك وجدت رجلًا وجهه قبيح له أنياب تسيل منها دماء.. ثم اختفى بسرعة!!».

– «أهذا جن؟!!».

– «أجل، فلنذهب. تمسكى بى جيدًا.. واحتضنينى ها!».

فقالت فى رقة:

– «اذهب فى صمت يا فتى!».

سار (حسن) و(ليان) مرتبكة أقدامهم، خائفة قلوبهم، متشبثين فى بعضهما يطمئن كل منهما الآخر. وكانوا ينظران حولهما وهما يسيران خوفًا من أن يجدا شيئًا! واقتربا من البيت.. ودخلاه.. ولأول مرة.. يفعل (حسن) شيئًا لم يكن يتخيل يومًا أن يفعله! فإنه يرتعب من الحشرات وأخصها الصراصير.. فما هذا هيكل لإنسان تحلل يجب أن يحمله!

ولكن.. على كلِّ إنسانٍ فى الحياة أن يغامر! ما من بشرٍ إلا ويجب أن يقوم بشيءٍ فى حياته لم يكن يتخيل فعله.. أن يجازف فى أمر، يواجه شيئًا، يخاطر، يغامر، يضحى، يبكى! كل واحدٍ لا بد وأن يفعل شيئين على الأقل مما سبق.. حتى وإن كان غصبا!

عندما دخلوا البيت، حاول (حسن) أن يحفر تربةً فى أرض البيت، لكن كان صعبًا، وكانت صلبة، وليس معه شيء ليحفر به سوى عصًا صغيرة عثر بها فى البيت. فحمل الجثة.. وبحث عن رأسها المخلوعة وحملهما، التى لحُسن حظه لا

يرى شكلها، وخرج وخرجت معه (ليان) إلى الخارج والخوف يملؤها مما ترى. والتف (حسن) وراء البيت يحفر فى الطين الذى سيّلته الأمطار التى لا تزال السماء تأتى عليهم بأمطارها وبرقها ورعدها. فأخذ يحفر حتى تمكن من حفر تربةً بحجم الجثة ذات الرائحة العفنة جدًا.

و(ليان) تراقبه وهو يقوم بكل ذلك ممسكة يديها ببعضها من القلق، وترتجف كثيرًا من البرد والمطر. دفن (حسن) الجثة، وجلس يلتقط أنفاسه من شدة ارتباكه مما قام به. وأتت إليه (ليان) واضعةً يدها على كتفه، وقالت له أن يرحلا. قام (حسن)، وركضوا سريعًا. وتعثرت (ليان) وأنهضها، وواصلوا السير.. وظلوا يسيرون أمتارًا كثيرة.

سمعوا خلفهم صوتًا يقترب منهم. فلما التفوا خلفهم ليرون ما يكون ذلك، فإذ وجدوا كلبًا يركض وراءهم من بعيد ركض الوحوش فى البرية! فقال لها: «اركضى يا (ليان)!!»، وركضوا بأقصى سرعةٍ لهم حتى وجدوا بيوتًا أمامهم من بعيد. وصلوا إليها ووجدوها خالية الأنام! فدخلوا بيتًا وأغلقوا عليهم الباب

وكتموا أى صوتٍ يخرج من فمهم! واستلقوا على الأرض يأخذون أنفاسهم التى تتقطع، وظلوا وقتًا طويلًا ينهجون. استقروا بالبيت، وقال (حسن) ساخرًا وهو يأخذ أنفاسه:

– «أسوف نجد جثةً أخرى هنا؟!».

فضحكت (ليان)، وبحثوا عن أخشابٍ فى ظلمة البيت لكن لم يجدوا شيئًا، فقالت له:

– «اخرج وابحث لنا عن أخشاب لنشعل بها نار».

– «فكرى مجددً، المكان بالخارج مخيفٌ جدًا!».

فقالت وهى تحاول استمالته ليخرج:

– «اخرج يا بطلى!».

لم يكن له رد فعلٍ سوى أنه ظل واقفًا مندهشة أذناه مما سمع! وخرج باحثًا عن بعض أخشاب. لم يجد بالخارج فى هذه البيوت أيّةَ إنسان. لا يدرى ماذا حدث بها وجعلها فارغة هكذا مثل باقى البلاد وكأن أهلها ذهبوا مع الحرب العالمية!

ظل يبحث طويلًا حتى وجد بعضَ الألواحِ القليلة جدًا. لوحين فى هذا البيت ولوحين فى ذاك. لكنها كفاية بعض الشىء لتشعل نارًا. وبعد أن جمعهم.. تاه عن البيت الذى يأوِيَان فيه. فأخذ ينادى عليها حتى سمعته وخرجت له قائلةً:

– «أنا هنا يا أهبل!».

كانت فى بيتٍ من خلفه. فعاد إليها وهو يحمل الألواح فأمسكت منه وحدتين. ودخلوا ووضعوها فى منتصف الأرض وأستطاع أن يشعلها بعد صعوبة. ثم جلسوا حولها أمام بعضهما، وقال:

– «أيتها السماء التى أتيتِ علينا بأمطارك.. ويا أيتها النيران التى جمعتنا حولك.. فلتشهدنَ هذه اللحظةِ التى لا أدرىَ إن كنت سأراها مجددًا أم لا!».

وأعقب:

– «فقط.. وإن لم ينتهِ بىَ الكلامُ.. فلإن أختتمنّ يومى بهذا العصفور الجميل. وإنى لَليوم والأمس وقبل أمسٍ وغدَا.. لا أراهم أيامًا غير إن كان فيهم هذا الذى هو إلى الروحِ جاء هُدَى!».

ثم صمت وأركزَ نظره فى عينيها وقال:

– «لقد احتليتِ حياتى وعقلى يا (ليان)! وأخذتنى من بؤسى كما تنتشلين شعرةً منغمسة فى عجين!».

– «ما هذا الكلام الجميل! .. إممم.. وكيف احتللت حياتك إذًا؟».

ثم صمت برهةً وقال:

– «عندما أريد أن أبتعد عن كل شيءٍ وكل البشر.. فأكون أريد أن أبتعد عنهم وآتى إليك أنت وإلى تفكيرى بك. قد بتُّ أخاف وحدتى بشكلٍ مخيف.. وحدتى من دونك! فإنها مثل حالِ مدمنِ قهوةٍ لا يجدها!

فما بالك قد أحببتك كثيرًا وتعلقتُ بك تعلق الدم بالشرايين! إنّ روحى تعلقت بوجودك! بتُّ أشعر بالراحة النفسية معك. فإنك تطبطبين على قلبى! أتعلمين.. ذات يومٍ عندما كنتِ راحلة.. ركبى سابت بعدما مشيتِ كأنى أخذت مخدرًا وراح مفعوله وشعرت بقلبى يرحل معك».

وبعد أن أنهى كلامه وركز فى ملامحها وعينيها، لاحظ أنها تدمع. فإن (ليان) قلبها جميلٌ رقيقٌ جدًا تدمع من أبسط الأمور!

فقال لها:

– «ما يدمع عيناك يا (ليان عبد الغفار)؟».

فظلت تدمع صامتة حتى قالت بعدها:

– «ولكن عندى سؤال.. ماذا بعد أنك تحبنى؟».

– «لم أفهم سؤالك، كيف؟!».

– «أستطلب زواجك بى من أبى؟».

– «بالطبع يا فتاة! أوَأننى إذًا أوزّع مشاعرى أم ماذا؟!».

فضحكت ضحكةً خفيفة. فقال لها فى ابتسامة:

– «أحب ضحكتك كثيرًا!».

فخجلت أكثر ثم قالت:

– «متى سنواصل المسيرَ إذًا؟»

– «لن نستطيع اليوم من هذا الجو.. سنبيت هنا وغدًا إن شاء الله فى صبيحة اليوم نرتحل».

فقالت (ليان) خافضةً رأسها فى نبرةٍ جميلة مثلها:

– «أجل.. حتى إننى أروق للسهر هنا اليوم!».

فنظر إليها بلهفةٍ وابتسامة وقال:

– «تقصدين أحببتِ السهر معًا، أليس كذلك؟!».

فابتسمت فى خجل ولم تقل شيئًا. وظلوا جالسين مدة الثلث ساعة يتحادثون حديث خِلٍّ إلى خليله فى ليلةٍ من ليالى الصفا! وظلوا وقتًا طويلًا ينظرون إلى أعين بعضهم بعضًا دون كلام! فى أجمل سهرةٍ سهرها إنسانٌ مع رفيق روحه الذى أنِست له روحه وألِفت إليه ووجدت معه السكون والراحةِ النفسية!

قال لها (حسن) فى أثناء تلك الجلسة ما دومًا يقوله لـ(حامد) والعم:

– «أتعلمين يا (ليان).. إن الأشياء التى أريدها أجدها عند الناس يسيرةً وتتعطل محركاتها إن كانت قادمةً نحوى!».

فقالت:

– «يا (حسن).. سأقول لك شيئًا.. أريدك أن تمشى فى الحياة وبرأسك هذه النقاط.. كلنا دمًى فى أرض الله، ورزقنا عليه.. ولا أحد –أبدًا– لا يأخذ رزقه كاملًا أو يأخذ رزق أحد غيره حتى وإن كان أفضل منه، وحتى إن ساعدته فى شىءٍ يخص عملك! فإنك عندما تعلّمه شيئًا فهذا سيُكتب عند الله ويُعلى من شأنك.. لكن لن ينقص من رزقك أبدًا. فكلٌّ مكتوب له ماذا سيأخذ فى رحلة الحياة».

نظر إليها بابتسامة وقال:

– «أستمتع بسماع كلامك كأنه كلامٌ فى الجرنال!».

– «أريد أن أخبرك بشىء.. لقد قرأت كل أوراقك!».

فارتبك قلبه وقال:

– «ماذا؟! كيف؟!».

– «عندما كنت ووالدى نائمين عند عمى ذلك اليوم، استيقظت بالصباح لأرحل. فوجدت أوراقك بجانب الحقيبة خاصتك، ففتحتها وقرأت ما بها».

ثم صمتت قليلًا وأعقبت بنبرة عالية:

– «أنت بائسٌ جدًا!».

فقال بمزح:

– «شكرًا شكرًا».

فضحكت وقالت:

– «لكنك مبدعٌ فى الكتابة! لقد أبكانى أسلوبك وحزنك الشديد هذا!».

فصمت ولم يقل شيئًا، وينظران حينًا إلى النيران، وحينًا إلى بعضهما. وظلَّا وقتًا طويلًا ينظران إلى أعين بعضهما دون كلام. وفى هذا الهدوء التام الذى تسمع به صوت ضربات قلبك وتشعر بهزتها، أخذ نفسًا وقال:

– «كنت فى هذه الأيام الطويلة أترصدك وأترقبك حتى تأتين.. تنظرين إلىّ.. وتضحكين لى. كانت عيناى تلمعان إذا نظرتِ إلىّ حتى إن نظرتِ إلىّ عن طريق الخطأ، أيتها المشاكسة!».

فضحكت وقالت:

– «كنت محرجةً كثيرًا منك.. ماذا عساى أن أفعل؟ حتى إن والدى وعمى كانوا جالسين معنا.. أأضحك لك حتى تكون آخر ضحكةٍ لى؟!».

– «يا ربى كم أن اللحظات الجميلة دائمًا تنقطع علىّ!».

وأعقب:

– «أتعلمين.. كنت فى كل مرةٍ أفكر بكِ يأتى أحدٌ ويقاطعنى.. بئسًا لذلك!! وكأنهم ينتظروننى أفكر بكِ حتى يأتون!».

فضحكت بخفة، ثم صمت قليلًا وقال لها:

– «أتعلمين.. أنا كثير الهموم والحزن والعُبوس.. أخشى أن تملِّين منى ومن كثرة بؤسى.. أخشى لو تجدينني عابسًا وقتما تكونين سعيدة! لكنه ليس بيدى.. وآسف على ذلك!».

فصمتت، ثم قالت:

– «انظر يا (حسن).. نحن لا نريد شخصًا نضحك معه فقط أو نسمع منه معسولَ الكلام.. وإنما نريد شخصًا يسقى روحنا فتزدهر، نريد شخصًا لا نشعر معه بالغرابة أو الخجل من فعل أشيائنا التافهة معه، نريد شخصًا تُملَؤ علاقته بالارتياح والأمان، شخصًا لا نعتمد على غيره فى هذه الحياة، ولا نتطلف معه الود، ويكون سرّنا وكلّنا الآخر!».

ظل صامتًا بعدما سمع هذا الكلام، ثم قال:

– «وبحق تلك آيات الكتاب المبين إنى قد حظيت بأنثى فى حياتى تهنأ القلوب بها وتنقص قلوبٌ ليس بها (ليان). فطوبَى لمن حظى بمثلك فى حياته.. وطوبى لى إن حظيت

بك إلى الأبد. وإنى لأقسم بربى أننى ستخورُ سعادتى بفقدكِ أو غيابك عنى!».

وأعقب:

– «دمتِ حنانًا حنونةً عِلمًا عَلَمًا خلوقةً خليقةً ذكيةً زكيةً وحفِظَك الله من كل ضُعفٍ وضَعفِ!.

أتعلمين يا (ليان)! إن حبك مثلُ كوبِ شايٍ رائقٍ اقتحم خلايا عقلى مداعبًا أطرافِها حتى شعرتُ أننى سكرانُ! أيا حُلوتى وجنّتى ووِجهتى ووَجهتى وخاطرةٌ رومانتيكيةٌ تتململ إلى شغافِ قلب قارئها اكتبها عقلى فبكى عليها العاشقون! .. إنك غريبة! غريبةٌ جدًا! غريبةٌ أنتِ حتى أنك تبكين من أقل الأمور إذا لامست قلبك! غريبةٌ أنتِ حتى تبكين إذا حدث بيننا سوء! إنكِ تُشبهين البحرَ فى غرابتِه. ليت كل العالم مثل غرابتك هذه فلا يشقى الأشقياء حينها ولا تنقطع خيوط العلاقات! ولو أن من بين كل ألفِ شخصٍ يوجد واحدٌ غريب، فأنتِ هو الغريب. ولو كانت البشريةُ كلها غرباءَ مثلك لعمّت

المثالية ولخُولِفَت كتب المنطق ولتلاشى تنوعُ أشكالِ الحياة وتباينها!

إننى أعشق غرابتك.. وغُربتى معكِ.. وغِيرَتك علىّ. أريدُ أن أكسر قاعدةَ الألف حتى يكون غريبان من بين ألف. حينها.. نكون أنا وأنتِ الغريبان.. غريبان الليلِ الشريد! فنسير فى طرقاته معًا فتضحك لكِ أعمدة النور فأغارُ منها عليكِ. ما لى أرانى أحسدُ قلبَك أن الله خلقه بين ضلوعٍ مثل ضلوعكِ! أفلا إن قواميسَ اللغات كلها لا تناظرها فقرةٌ واحدة فى مقالٍ يتناول جمالك الداخلىّ! أوَلا إن كلمات الأغانى العَطِرة تكفى أن تصنعُ مقالًا واحدًا فقط من بين موسوعة مقالاتٍ توصفُ جمالك!».

ابتسمت (ليان) ودمعت عيناها. وابتسم هو الآخر تكاد ابتسامته تخترق مساحة وجهه من الجانبين. وفى أثناء ما كانوا جالسين.. أمطرت السماء مجددًا وكانت رياحها باردة شديدة جعلت (ليان) تشعر بالبرد كثيرًا وترتجف. فحاول (حسن) أن يدفئها بزيادة شعلة النار والتى لم تأتِ بنفع. فخلع معطفه

وألبسه لـ(ليان) وصار هو يرتجف، لكنه نجح بعض الشيء فى تقليل حدة البرودة عليها. ولكن.. أخبرته (ليان) أن قدميها تؤلمانها وجسدها يرتجف بردًا. فإنها تعانى من وجعٍ فى عظامها من شدة البرد، ولا تستطيع تحمل برودة الجو.

ولا تزال ترتجف بردًا حتى بعدما غطاها بردائه الكثيف. فوقف (حسن).. وشدها بيديه لتقف هى الأخرى وهى لا تزال ترتجف. ينظر إلى شفتيها الجميلتين الناعمتين ويرى تلك الابتسامة الخفيفة على وجهها المريح النظر. وينظر إلى عينيها عسلوات اللون وهى تنظر إليه لامعةً بؤرتها. حتى نظر إليها صامتًا مدةَ الدقيقة.. وقال فى دخيلته «انتهت حلولُ ردعِ هذا البرد اللعين».. وفى أثناء نظرتها اللامعة المرتجفة إلى عينه وهى تكلب يديها ببعضها.. ضمها إلى صدره ضمةً أسكتتها عن الارتجاف وحولت زفيرها البارد إلى بخارٍ دافئٍ هادئ لم يسمعوا غيره فى ضمتهم! وأرخت يديها جانبًا مستسلمةً له ولاحتواء صدره لها.

تسامت عقولهم وتلاشت مشتتاتها وهدأت نبضات قلبهم عن الارتجاف وانتظمت. وقد سلكت أجسادهم دربَ الراحة النفسية.

قال لها بصوتٍ هادئ تصعد معه أنفاسه:

– «اهدئى يا نور عينى.. اهدأ أيها القلب الجميل ولتُطع هوى سيدتك المرتجفة!».

وصمت برهةً وقال:

– «أحبك يا (ليان).. أحبك كثيرًا يا فتاة! أيا حُلوتى.. لىَ الشرفُ وإن لم يكن لى ما دمتُ معكِ سميرًا وأنتِ لى مؤنسةٌ أقدامَ يومى فى ليلتى هذه فى أيامىَ السيئةِ هذه وإن كان قلبُك لقلبى طبيبًا!».

ابتسمت (ليان) دون كلام وأذُنها احمرت والتى لاحظ سخونتها (حسن) ولم تقل شيئًا. فابتسم (حسن) هو الآخر وكأن ابتسامتها ردّت إليه مغازلةً إياه. وغلب النومُ (ليان) حتى نامت مرخيةً رأسها على صدره. وظل ينظر إليها كثيرًا وهى نائمة يتأمل فى جمال ملامحها ثم أجلسها أمام النيران تدفئها.

وقال بصوتٍ هادئ وهو ينظر إليها نائمة:

– «لتكن كلماتى إلى هذا النائم الجميل.. إن حكمة الله فى خلق الناس لا تخرج عنها المباهاة بين سائر خلقه. فيا عجبًا للروح.. كيف لِامرئٍ أن يجد السكينةَ وارتواء الروح فور حضور من هو له الدواء والهناء ومطرح الراحةِ وضحكة القلب! يا عجبًا للروح.. كيف يهدأ هذا القلب المفطور عجِلًا برؤية من يحب هياما! يا عجبًا للروح.. كيف إن الروح تشبه فى توهتها بالطفل الشريد الذى لا يجد أمه التى تحنو عليه وتطبطب على روحه!».

نام (حسن) ونامت (ليان) فى لحظةٍ جمعت كل مشاعرَ الدفءِ والحنانِ بين قلبين سكنا إلى بعضهما. فى لحظةٍ لا تتكرر فى العمر إلا مرة. فإنه لشعورٌ جميلٌ أشبه بأن تكون مستيقظًا وحدك وسائر البيت نيام. مثل أول لعقة من الجُبن الإسطنبولى. مثل اندفاع هواء الليل معتدل البرودة عليك فيغمضك عينك من لذة الهواء! مثل شربةٍ من مياه القلة البارد بعد ظمأةٍ. مثل أول كلمة أحبك قال لها رفيق روحك أو شخصٌ تحبه! وإنها تشبه رمى جسمك لأول مرةٍ فى مياه البحر الأزرق الشفاف. وتشبه استحمامك شتاءً وخروجك إلى المدفأة تحت لحافك وتحتسى فنجال قهوةٍ رائق وتدفأ!

نام الاثنان حتى صبيحة اليوم التالى.. فإنه لا شىء يوقظهم فى نومتهم الدافئة هذه وهم نيامٌ فى حضرةِ بعضهما فى مشهدٍ يتمنى المرء لو يجربه! وفى أثناء نومتهم.. أفاق (حسن) على صوتِ شخيرٍ يأتى من خارج البيت.. حتى أدرك أنه صوتَ شخير كلب مصعور يريد أن يدخل! فهذا الكلب يريد أن يأكل، فيشم رائحةَ طعامه بالداخل. فنهض (حسن) سريعًا

ونهضت (ليان) فى فزعةٍ وخوف. ويُحدثُ الكلبُ أصواتَ شخيرٍ مخيفٍ بفمه، ويخربش بأظافره على الباب الخشبى الضعيف، ويصارع من أجل الدخول. ارتبك (حسن) و(ليان) خائفين مذعورين! فيفكر ماذا يفعل لينجوَا منه. فانتشل المعطف من (ليان) وأمسكه بيده.

ووقف خلف الباب يدفعه حتى لا يُفتح. ويواصل الكلب هيجانه وصراخه بأصواته التى ألقت فى قلوبهم الرعب. حتى بعدها سكت الصوت.. وصمتت الأجواء من حركة الأقدام! وظلوا صامتين ناظرين إلى بعضهما فى مشهدٍ مخيف دام لدقائق.. حتى أرخى (حسن) أعصابه.. وترك الباب.. وذهب يجلس مع (ليان) قليلًا منتظران أن يصفى المكان بالخارج من أى شىء.

وبينما كانوا جالسين فى هذا الهدوء التام.. هاج الكلبُ عليهم وأخذ ينبح ويشخر ويخربش بقدميه بقوة حتى استطاع أن يفتح الباب الهرِم! فدخل وهجم على (حسن) الذى ألقاه

أرضًا.. وكان سيلتهم وجهه حتى أبعدَ (حسن) فمه بيده اليمنى والتى عضها الكلب وسالت بالدماء! و(ليان) تصرخ فى الخلف لا تدرى ماذا تفعل أو كيف! واستطاع الكلبُ أن يقطّع جسد (حسن) بمخالب أقدامه.. ويصرخ (حسن) من الألم حتى انفجر غضبًا واستطاع أن يقوم به ويلقيه بقوة على الأرض.

وأخذ المعطف وتمكن به من إمساك الكلب بداخله وجسده ويداه ينزفن بالدماء! فأخذ يدهسه ويركله بقدمه والكلب يصرخ ويعوى بصوته المخيف من أثر الضربات المؤلمة عليه. وظل يركل بغضبٍ وهو لا يشعر بالألم والنزيف من شدة أعصابه. حتى انتهى الكلبُ من الصراخ.. ولا صوتَ يخرج منه.. وتأكد (حسن).. أنه قد مات! وأخذه فى المعطف وألقاه خارج البيت بعيدًا ودفنه. وعاد إلى (ليان) التى وجدها جالسةً على الأرض فى وضعِ القرفصاء الحزين تفيض بكاءً خوفًا عليه. فلما رأته جرت عليه واحتضنته بشدة وهى تبكى.

وقالت:

– «(حسن)!! خفت عليك كثيرًا!! ماذا بك؟!!».

وتبكى وهو يقول لها:

– «أنا بخيرٍ يا حبيبتى.. اهدئى وكفّى عن البكاء، تبكين كثيرًا أنتِ».

وتزيد بكاءً فوق بكائها وضمته إليها بشدة. وانهارت (ليان) مما رأت عليه من دماء. فأجلسته على الأرضِ وخلّعته ملابسه كاملةً، فلم يكن مرتديًا غير سرواله الأبيض الداخلى وجسده الأملس ذى البشرة البيضاء. وكان ينزف دماءً ملوثة من مخالب الكلب فى يده اليمنى وصدره.

فقال لها بابتسامةٍ وهو يتألم:

– «ستغتصبيننى أم ماذا؟!».

فقالت:

– «اسكت يا سافل!».

وأخذت تقطّع قطعًا من ثيابه وتحاول سد النزيف. حتى انتهت وألبسته ثيابه مجددًا. ولكن.. قد سلك السم مسلكه داخل جسده. وبدأ (حسن) يعيش آخر دقائق فى حياته!

* * *

عودةٌ خائبة

خرجا من البيت وسارت به (ليان) مسندةً إياه بيديها –كما فعلت معه من قبل– وتتحدث إليه تهوّن عليه. لكنه لا يجب بأى شيء، وأعذرت ذلك بتعبه وإنهاكه. وظلت تسير به حتى علمت أنها وصلت لمخرج البلدة عندما رأت لافتةً مكتوبٌ عليها «كفر بنى سالم». وأخذت تمشى حتى حست بجسد (حسن) يتثاقل عليها شيئًا فشيئًا. حتى تثاقل جسمه كليًا وليس به أى حركة. فلما أدركت (ليان) بذلك، أنامته على الأرض، وبدأت تناديه وتحاول إيقاظه.. لكن السم قد نال من (حسن) المسكين. وتصرخ عاليًا باكية، وتناجيه بالنهوض وأن يجب عليها.. لكنه لا يجيب إطلاقًا.. فإن (حسن) قد مات!

بكت (ليان) على فراق (حسن) لها.. وبكت على فراق احتوائه لها الذى لم ترَ مثله من قبل.. وبكت على الضحكة التى كانت تخرج منهما. قد فارقت كل هذا.. ولا تدرى ماذا هى بفاعلة بعد فراقه! فتشعر بأنها فى عالمٍ منعزلٍ لا تدرى له بسبيل! ومرت دقائق وهى جالسة أمام (حسن) حزينة تستوعب ماذا حدث. حتى سمعت أصوتًا تنادى:

– «ليااااان! حسااااان!».

فرأت أبيها وعمها و(حامد) من بعيد يبحثون عنهما على متن عربة الحصان. فصاحت بصوتٍ عالٍ باكية:

– «أنا هنا! .. أنا هنا!».

فسمعوها وذهبوا إليها. وإذ وجدوا (حسن) نائمًا على ظهره وجسده تسيل عليه الدماء. فزع الثلاثة وحاوطوه.. وشعر (حامد) بصفيرٍ فى أذنيه ورَبكةٍ هزت قلبه يحاول ألا يصدق ما يراه! فسقط على قدميه مرتكزًا أمام (حسن) يحاول إيفاقه. لكن بلا أثر ولا جدوى.. فسألوها ماذا حدث، وأخبرتهم بكل

شيء وهى لا تزال تبكى. حتى اجهشت عينُ (حامد) بالدموع حتى بُهِتت الرؤية. حاولوا تهوين الأمر عليه، لكنه غير منتبهٍ لما حوله. مر وقتٌ طويلٌ وقاموا يذهبون بعد أن دفنوا (حسن) وصلوا عليه صلاة جنازة.

كان الجو شديد الرياح.. والهواءُ يحمل غبارًا فى ثناياه ويقترب إلى قيام عاصفة شديدة. عادوا أربعتهم إلى بيت العم (يحيى) –ولكن أربعتهم هذه المرة من دون (حسن)–. وجلس (حامد) مدة ساعتين معهم عابسًا لا يكلم أحدًا أو يجيب.

ثم قال لهم إنه سيعود إلى دياره، حاولوا إقناعه بأن يظل يومًا آخر على الأقل، نظرًا لحالته، وحتى يُشفى تمامًا من نزلةِ بردِه، ونظرًا لحالةِ الجو التى تنذر بقدوم عاصفةٍ قوية.

وفى أثناء ما كانوا جالسين.. وفى ظل هذه الرياح العاصفة.. سمعوا صوتَ هزةٍ أرضيةٍ كالتى سمعها (حامد) و(حسن) فى قريتهم. فخرجوا من البيت يرون المكان بالخارج.. حتى رأوا موجةً عالية من الرمال والصخور آتية نحوهم من بعيدٍ جدًا بسرعة. فهرعوا وفزعوا ولاحظوا أن هذه الموجة تقترب إليهم وسوف تسحقهم ترابًا! فإن بيت العم (يحيى) مثل بيوت قرية (حامد) مبنية من الطين على النهج القديم. فأُلقى فى قلوبهم الرعب، وأسرع والد (ليان) يأتى بالعربة أمام الباب ليركبوا ويفروا بعيدًا إلى حيث ينجون من العاصفة.

ولكن.. كان للعم (يحيى) رأىٌ آخر.. فقد رفض أن يذهب معهم وقال إنه لن يترك مَبوأً كان يحتضنه بريح زوجته. فإما أن يموت ويذهب إليها، أو يبقى فى موطنه هذا الذى عاشا فيه شبابهم قبل مشيختهم وقد جاوز السبعين.

إذ قال لهم:

– «أنا لن آتى.. هذا يومى.. وهذه العاصفة قد أتت إلىّ أنا.. فإلى هنا قد انتهى خيطُ عمرى الطويل الذى مُلئ كأسه بخيرٍ من الله. سأكمن فى المكان الذى حييت فيه عمرى مع زوجتى وولدى. فلا شيءَ لأعيش له بعد الآن.. وسوف أذهب إلى زوجتى التى اشتقت إليها كثيرًا واشتاقت إلىّ... ولى شوقٌ للقاءٍ مع الرحمن الذى خلقنى. انتبهوا أنتم لأنفسكم.. سأشتاق إليكم كثيرًا. سأنتظركم برفقة زوجتى يا أولاد!».

وقال وهو يلوّح بيده:

– «إلى لقاء عند الله!».

وأتت العاصفة بصخورها التى تحملها فيها، وهدمت ما يعلو الأرض أمامها. وامتلأت الأجواء بترابٍ أصفر لا يستطيع أن يرى أحدٌ ما أمامه بمترين فقط. حتى اقتربت من بيت العم (يحيى).. ثم هدمته وانقلب ترابا. وودّعهم العم (يحيى) وودعوه كما ودعهم (حسن). وصاح (حامد) باسمه.. وبكت (ليان) صارخةً بـ«عمى (يحيى)!!».

وذهبوا بعيدًا إلى بيت والد (ليان) بناحية الشمال. حتى جاء الهدوء بعد العاصفة.. وأمطرت السماءُ عليهم وهم فى الطريق، معلنةً عن منحهم عمرٍ جديد.

بعدما اطمئنوا وجلسوا فى بيتهم يملأ قلوبهم الحزن الشديد.. جلسوا فى ارتجافٍ من برد الأمطار الشديدة والرياح. وعندما انتهت بعد استمرارها ساعتين.. قرر (حامد) العودة إلى دياره بعد رحلةٍ بائت بخيبةٍ كبيرة وفجيعة الفراق!

* * *

ودّع (حامد) (ليان) ووالدها، ورحل على متن حصانٍ أعطاه. انطلق بلا توقف لا يعبأ بعثرات الطريق. ورحل وهو يحمل على كتفه ثلاث خيبات: خيبة فراقه عم (يحيى)، وخيبة عدم إيجاد عمل، والأشد من ذلك.. خيبة فراقه لرفيق دربه وعشرة عمره (حسن)؛ صديقه الذى عاصر معه رحلته القاسية هذه فى سيرهم الذى كان نحو مجهول.. الذى يفهمان بعضهما دائمًا.. ولا يعلمان طعمًا للضحك غير وهم بحضرةِ بعضهم.. واعتادا أن يسهرا معًا كل ليلةٍ يضحكان ويرميان هموم الحياة. فأخذ يسير الآن وحيدًا فى طريقه نحو الديار.

وصل (حامد) أخيرًا.. ولما وصل.. ظن أنه ضلّ الطريق. فنظر إلى لافتة مكتوب عليها «ميت غراب». ولكن.. لما دخل القرية باحثًا عن أهله والديار.. لم يجد أهلًا.. ولا ديار! فإن العاصفة ذات الهزة الأرضية قد خسفت بقريته وكانت فى طريقها إلى بيت العم (يحيى)! وبات وحيدًا تمامًا ليس معه أصدقاء.. ولا أهل.. ولا ديار يقيم بها! وبائت رحلته بالفراق والحزن.. وباتت حياته فى سيرٍ نحو المجهول!

ومن منا قفز إلى هذه الدنيا ولم يشقَ! فإن منا من روحُهُ معلقةٌ بشخصٍ ما! وإن منا من فقد شخصًا عزيزًا عليه، وكانت روحه دواءً طبيبًا يرتمى إليه عند كسرتِه، وقد بات جوفُه سكنى لروحٍ مهجورة!

فإلى عزيزٍ باتت سُكناهُ فى قلبىَ وتلاشت ذكرياتُنا عبر الزمان..

شكرًا لك على كلِّ اللحظاتِ الجميلةِ التى عشتُها معك. شكرًا لك على نكاتِك المضحكة وإيماءات وجهِك الحانيةِ اللطيفة. شكرًا لك على مُجاوَرتِكَ لى وَسَطَ خوفى، واحتوائِك لى وعدم تَذمُّرِك عندما أُلقِىَ لك بهمومِىَ العابسة. شكرًا لك على سَهَرِك معى عندما لا أجدُ أنيسًا يؤنِسُنى. شكرًا لك على جَبرِكَ خاطرى عندما أهربُ من الدنيا كطفلٍ يبكى وآتىَ إليك مكسورَ الجناح! شكرًا لك على مرافقتِك لى طوالَ هذا العمر وشكرًا لك على كلِّ ما قدمتَهُ لى ولم ترضَ بنا الدنيا معًا وها قد فرقتنا!

كنتُ أتمنى لو نكبرُ سويًا وتتجعد ملامحنا! كنت أتمنى لو أننا ما زلنا نبكى فى أحضانِ بعضنا من الدنيا، غيرَ أنْ نبكى من الدنيا فى فراقِنا! كنت أود لو أن نسيرَ فى الطرقاتِ معًا نضحكُ مثل طفلينِ يلهوانِ فى الطريقِ إلى الديار، فأسيرُ وحدى فى الطريقِ غارقًا فى همومِىَ التى اعتدتَّ أن تمحوها عنى! والليلُ يطول فأعيشُه وحدى إذا يأخذُنى بظلامِهِ فى أحضانِهِ المخيفة. فلَيلٌ أعيشُهُ وحدى غيرَ ليلٍ كنا نؤنِسُهُ معًا فى أعماقِ عالمٍ مظلمٍ بائس!

لستُ أدرى كيف سيعيشُ قلبىَ وهو يطاردُ طيفَ روحك! إنى أرجوَ لك أن تجدَ السكينةَ والهناءَ فى حياتِك القادمة، وإنى لراجٍ ألا تنسانىَ عندما تجدُ بديلًا لى. حظًا سعيدًا وإنى سأفتقدك يا رفيق الروح!

* * *

تحليـــــل الروايـــــة

عزيزى القارئ.. إذا أمعنا التركيز وسلطنا الضوء على بعض الأمور فى الرواية.. فسندرك أن:

- (حامد) يمثل العقل.. التائه.
- العم (يحيى) يمثل العقل.. الراشد.

ومنهما –من جلساتهما معًا فى «إقامة تطول» صفحة ١٣٨– ننتهل بعض النصائحَ والحكمِ من الراشد.. حتى يرشد التائه!

- (حسن) يمثل القلب.. الضال الذى يريد مرسى يحتويه ويجد به ذاته.
- (ليان) تمثل القلب.. الذى سكن إليه القلب الضال!

وما صوروه لنا من شعور قلب المرء بالراحة النفسية عندما يجد من يسكن إليه.

وبمطالعتك لمطلع الثلُث الثانى (ليان) صفحة ٧٤، وحديثهم معًا، وخاطرة «سكنى روحٍ مهجورة» فى الصفحتين السابقتين، فستدرك ما هو الاحتواء.. وما ينبغى أن يكون به القلبان لبعضهما.. وما حقًّا يجب أن تكون عليه العلاقات الإنسانية بين طرفين «أحبّا بعضهما فى الله».

فلا أحد يقدر العيش وقلبه وعقله يعملان فى الوقت نفسه.. فإما أن عقلك سيطغو على قلبك ويعمل بمفرده مائلًا إلى المنطقية. وإما أن قلبك سيطغو عليه وتكونُ عاطفيًا مائلًا الوجدانية... أو إما قلبك سيأثر على عقلك فيدخلان معًا متاهةً فى عالمٍ موازٍ تائهٍ مجهولٍ لا يفهم ذاته!

وما يجب أيضًا أن نعقله فى العلاقات، فهمنا الخاطئ لها كما أوضحت خاطرة «فى غمار عالمٍ عابر» صفحة ٣٩، وخاطرة «الصدفة» صفحة ٥٨، وخاطرة قادمة صفحة ٢٤٤. حتى أن جيلنا أدمن جملة "كلنا فتراتٌ بحياةِ بعضنا". ويعيشون خلف رداء المكتئبين. فاعقل علاقاتك أيها الإنسان. فهى أطوارُ حياة، والإنسان بيده القرار، وليست الحياة.

بالتأكيد قد لاحظت فى صفحة ٥٧ كم أن تدابير الله دائمًا تحمل لنا الخير فنقف مذهولين بالنتيجة! وأنه لا شىء يقدره الله لنا إلا وكان به خيرًا لنا.. حتى وإن كان هذا الشىء صعبًا علينا أو مُحزِنًا أو مرفوضا!

فكم أنت جميل يا الله! حقًا كم أنت كريمٌ لطيفٌ رؤوفٌ بقلوبنا المهترئة! إنك تعلم أين الخير لنا الذى لا نعلمه نحن. كم أنت يا ربى رحيمٌ بأجسادنا وأرواحنا! كم أنت خير المُعوِّض وكم أن عوضك الجميل ينسينا ما قد كان متبوئٌ فى الأذهان مقيم! فسبحان الذى يطفئ شرارةً ليخلق مكانها نضجًا. سبحان الذى يحوّل الرغبة إلى لا مبالاة، واللا مبالاة إلى رغبة ثم ولَع! وحمدًا كثيرًا لك يا ربى على ما فعلته لى، وعلى ما ستفعله من أجلى وأنا لا أعطيك ما يرضيك غير صلاةٍ ودعاءٍ وصدقةٍ وأذكار!

عزيزى القارئ.. أعلم أن هذا العالم قاسٍ بما فيه الكفاية. هذا عالمٌ ظالمٌ بائسٌ ونحن نخوض غمارَه. إن جل ما أريد قوله أن لا شىء يدعو إلى الاهتمامِ ما لم يكن الدَلو الذى تملأه لن يفلت من يديك ويُغرقُك بمياهه التى ملأته إياها، وأنه يقدر حجم المياه التى تذخره بها فيرويك بها حبًّا عند احتياجك إليه.

ستدرك يومًا أن الاهتمام يعبر عن قدرك لدى الآخر من حبٍّ واحترام.. فإن أردت أن تُشعر أحدًا بأنك تحبه، فلا تخبره بذلك، فقط اهتم به وهو سوف يلاحظ حبك فى اهتمامه. عزيزى القارئ ستفطن يومًا أن الاحترام أهم من الحب.. تخيل كم كان بكثيرٍ من العلاقات من حب قبل أن تتمزق. ولكن إن كانت علاقةً خير العلاقة فسيتبيّن مما يفوح منها من احترام وتقبل كل طرف للآخر واشتياقه إليه. فالاحترام هو مرآة العلاقات الإنسانية أجمع. وكم إنه قاسٍ وغريب.. أن يتغير أسلوبُ إنسانٍ أمامك فيتصرف أن الأمر عاديٌ وهو فى داخله يحمل صراخَ لحنٍ حزين!

ستدرك يومًا أن إحساسك بفرحةِ قلبِ شخصٍ أسعدتَهُ بشيء ولو بالقليل، أجمل كثيرًا من سطورٍ وأشطُرَ من جميلِ الكلامِ وأحلاه ردًا لك على فعلت معه. احترامك لرجل مسنٍّ أو حتى شخصٍ يكبرك سنًّا –وإن كان بالقليل– هو ما يعلى شأنك بين الخلائق. احترامك لأصدقائك، لإخوتك، لحبيبك.. هذا أهم من الحب.. هذه هى مكارم الأخلاق. حتى أنك تصل إلى مرحلةٍ تكون قد وصلت فيها إلى الثقة العمياء الناتجة عن حبك لشخص ما.. إنها أشبه بأخذك رأى شخص فى شيءٍ أنت مستعد للقيام به –ولا شك إن كنت تريده– فإن قال لك لا، فلا تفعله.

عزيزى القارئ.. إنّ أحلامنا بسيطة.. فأحلام المرءِ أن يعيشَ يومًا غير مشغول البال، وأن يُغلقَ صنبورَ التفكير الذى فُتح ولم ينغلق بعد! وأن يجلس فى غرفته ومعه جهاز «اللاب توب» بكوبِ شايٍ رائق ويلعب ويشاهد الأفلامَ ولا يأبه لأى شيءٍ أو أحدٍ حوله. يريد أن يُتْمِم مهماته التى لطالما حلِم بها! يريد أن يصطلح مع الله وأن يدخل فى خلاءٍ مع الله ليس معه

سوى نفسه الضعيفة وربه الذى خلقه. فنحن بالنهاية خلقنا لعبادته فى رحلة الدنيا القصيرة.. حتى نلقاه.

ولا أحد يستطيع أن يعيش وحيدًا أبدًا ما حاول.. فالله خلق الإنسان فى جماعات. وخلقكِ أيتها الأنثى من ضلعٍ عند قلب الرجل، أتعلمين لماذا؟ لأنه قال «وخلق منها زوجها ليسكن إليها». لا لتتمرد عليها، أو لتتقمص طبيعةً غير طبيعتها تحاول فيها أن تبدو مستقلة عن –أصلها– ومحتويها أو تدعى بـ«حقوقى». أعلم ما بعقلك أيضًا.. فلكىّ أوضح الأمر وأنهى الخلاف، فقد قلت «قلب (رجل)» الذى يعلم ما له وما عليه، وما خُلق لأجله وما ينبغى أن يكون به تجاه امرأته.

والمجتمع الصحيح الذى فهم القرآن بحقٍ يعلم حقوقك جيدًا.. وما عليه فعله تجاهك، وما عليك القيام طاعةً له. فلا داعىَ للتذمر الذى أزعجنا بغبائه فى الآونة الأخيرة للعامين (٢٠٢٠ و٢٠٢١). فالمرأة لا وجه لها أن تُقارَن بالرجل – ببساطة تامة– لأنها مختلفة تمام الاختلاف عن الرجل. فليس من العدل قول إن القلب أهم من العقل، أو العكس، لأن لكلٍّ

وظيفته وأداؤه الخاص به الذى يختلف به عن الآخر، ولكلٍّ إجراءاته التى تؤدَّى ليعيش سليمًا. هكذا الرجل والمرأة، فلا شىء اسمه «مساواة المرأة بالرجل»، لأن بذلك.. تنتهى الدنيا.. وينتهى طعمها.. وينتهى معناها..!

إن المرءُ يريد فقط أن يجد شخصًا يحبه ولا يتغير عليه مهما تغيرت أطوار الحياة! أن يعيش حياةً بسيطةً باله فيها مرتاح. أن يدوم له مدى الحياة ويمضيان سعادةَ الحياةِ وبؤسها صفوَها كان أو مُرّها!

وإن الإنسانَ مكلومٌ بين أوجه أربعة إذ خُلِق بهم، نفسه وعقله وروحه والمادة الأرضية. فأما نفسه «ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه». وأما المادة الأرضية فهى الظلام الذى يسكن داخله ويحتويه. فهى الطاقة السلبية بداخله. وإن المرء لا يجد نفسه إلا فى السكون وراحة البال. ولا يجد عقله إلا مع من يفهمه. ولا يجد روحه إلا مع من تسكن إليه.

إلى لقاء آخر فى

«الرحلة الأخيرة»

السيد سند